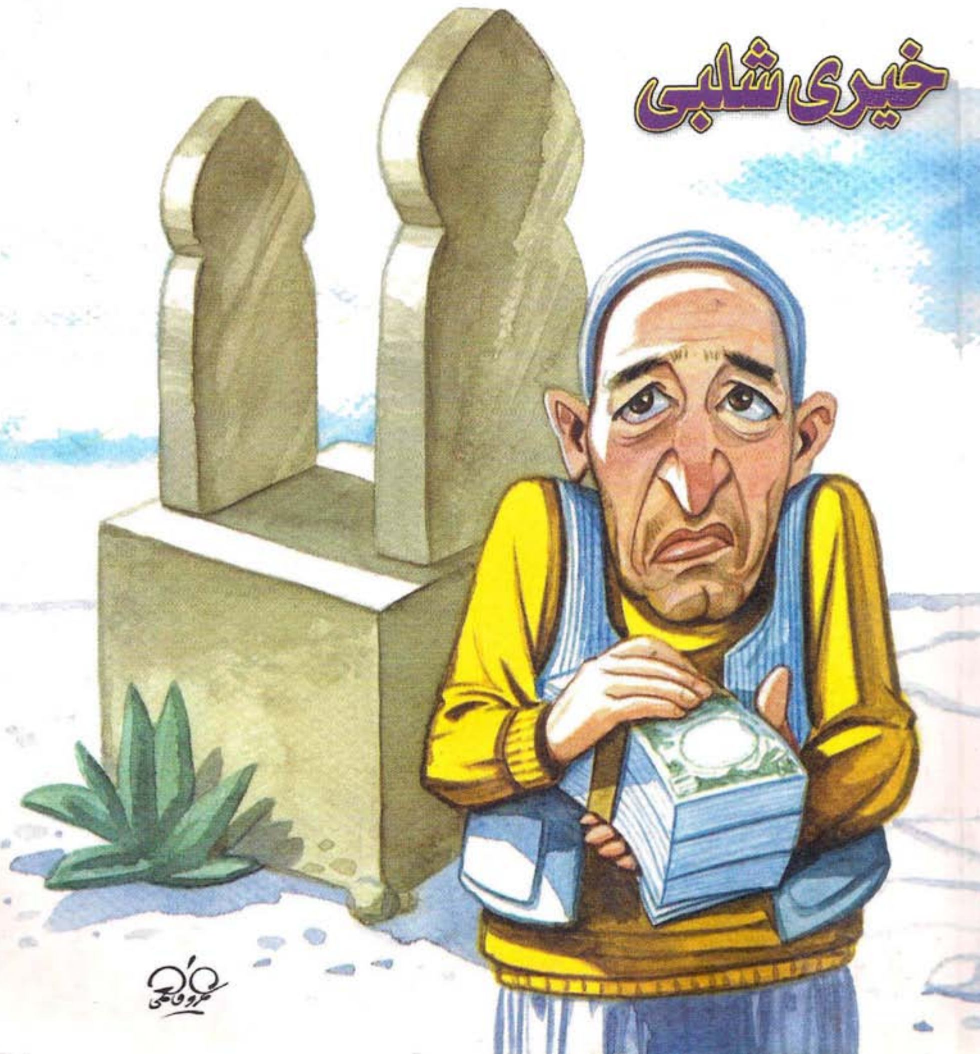
كتاب اليوم

ما ليس يضمنه أحد

مجموعة قصصية

خيرى شلبى





جديد
مطلوب
لطعمة اللذيذ
ويسترن برجر
ويسترن برجر
صوص الباربكيو اللذيذ والجبن الفاخر على برجر هارديز الشهى (لحم بقرى صافى 100 ٪)
وحلقات البصل المقرمشة داخل خبز هارديز الطازج
رقم واحد لخدمة التوصيل
19066
هارديز
برجر مشوى على اللهب

كتاب اليوم

ثقافة اليوم وكل يوم

العدد رقم ٥٢٦
يونيو ٢٠٠٩

يصدر أول كل شهر
عن
دار أخبار اليوم

٦ شارع الصحافة
القاهرة
ت: ٢٥٩٤٨٢٢٣
تليفاكس: ٢٥٧٨٤٤٤٤

الغلاف:
عمرو فهمى

الإخراج الفنى:
عبدالقادر محمد على

أسعار البيع
خارج مصر

سوريا ١٥٠ ل. س - لبنان ٥٠٠٠ ل. ل - الأردن ٢ دينار الكويت ١ دينار - السعودية ١٢ ريال - البحرين ١ دينار - قطر ١٢ ريال - الإمارات ١٢ درهم - سلطنة عمان ١ ريال - تونس ٣ دينار - المغرب ٣٥ درهم - اليمن ٥٠ ريال فلسطين ٢ دولار - لندن ٢ج ك - أمريكا ٥ دولار - أستراليا ٥ دولار استرالى - سويسرا ٥ فرنك سويسرى.

العنوان على الإنترنت
www.akhbarelyom.org.eg/ketab

البريد الاليكترونى
ketabelyom@akhbarelyom.org

ما ليس يضمنه أحد !

خيرى شلبى

قبل أن تقــرأ ..

في هذا العدد من سلسلة «كتاب اليوم» واستمرارًا لمسيرة ناجحة أعتز بها نقدم هذه المجموعة القصصية الرائعة للكاتب الكبير خيرى شلبى، والتى تأتى فى تتابع مشرف لإصدارات «كتاب اليوم» لكبار كتاب مصر ومفكريها .. هذا التتابع الذى أرى فيه سيمفونية رائعة من رحيق الفكر والثقافة العربية الخالصة والتى أتمنى أن تستمر بهذا الشكل والمضمون القيم، الباعث لروح الثقافة لكل القراء فى الوطن العربى الكبير.

خيرى شلبى أديب من أصحاب القامات العالية فى عالم الإبداع، فهو كاتب غاص فى أعماق الإنسان وحلق فى سماء الأدب بكل كيانه وعقله وذاته الطامحة العاشقة، ويكفى رصيده فى خزانة الجوائز الأدبية الكبيرة للتعبير عن مكانته، فقد حصل على جائزة جائزة الدولة التشجيعية فى الآداب عام ١٩٨١ وعلى

وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى فى نفس العام، وروايته "وكالة عطية" حازت جائزة أفضل رواية عربية عام ١٩٩٣ وميدالية نجيب محفوظ من الجامعة الأمريكية بالقاهرة عام ٢٠٠٣ وأفضل كتاب عربى من معرض القاهرة الدولى للكتاب عن رواية «صهاريج اللؤلؤ» عام ٢٠٠٢ وقد رشحته مؤسسة "إمباسادورز" الكندية للحصول على جائزة نوبل للآداب وغيرها من الجوائز التى لا يتسع المجال لذكرها الآن.

من أشهر رواياته: السنيورة، الأوباش، الشطار، الوتد، العراوى، فرعان من الصبار، وكالة عطية، موال البيات والنوم، ثلاثية الأمالى (أولنا ولد- وثانينا الكومى- وثالثنا الورق)، بغلة العرش، لحس العتب، منامات عم أحمد السماك، صالح هيصة، موت عباءة، بطن البقرة، صهاريج اللؤلؤ، زهرة الخشخاش، نسف الأدمغة ، صحراء المماليك (٢٠٠٨) وغير ذلك.

ومن مجموعاته القصصية: صاحب السعادة اللص، المنحنى الخطر، سارق الفرح، أسباب للكى بالنار، الدساس، أشياء تخصنا، وغيرها.

ومن مسرحياته: صياد اللولى، غنائية سوناتا الأول، المخريشين، وتمت ترجمة معظم أعماله إلى الروسية والصينية والإنجليزية والفرنسية والأوردية والعبرية والإيطالية، خصوصًا رواياته: الأوباش، الوتد، فرعان من الصبار، بطن البقرة، وكالة عطية، صالح هيصة.

وفى هذه المجموعة القصصية «ما ليس يضمنه أحد»

يجسد خيرى شلبى لحظة نعيشها جميعًا بمشاعر مختلفة.. لحظة التقاء الحياة بالموت والمفارقات العجيبة التى ينتجها الواقع بين هذين النقيضين أو وجهى العملة.. الحياة والموت.. فقصة «ما ليس يضمنه أحد» والتى حملت المجموعة اسمها تكشف عن الفارق الشاسع بين تدبير الانسان وحكمة القدر.

والآن أترككم مع سطور خيرى شلبى فى رائعته الجديدة التى يشرفنا أن يصدر فى هذا العدد من «كتاب اليوم».

نوال مصطفى

يونيو ٢٠٠٩

« أمسيت متعاطفا معه، استلبني كثيرا ما كنت من فرط غيظي أتخيل نفسي في مكانه حتى أصبحت مهموما بالتفكير في المقاومة والبحث في كيفية الدفاع عن كرامتي إذا لا قدر الله ابتليت بمثل هذه البلية.»

نفايات ذاتية!

عصر كل يوم، فى غرزتنا المفضلة فوق علواية زقاق المدق المتفرع من شارع الصنادقية المتفرع بدوره من خان الخليلى، وطوال ثلاثين عاما تقريبا، لابد أن نلتقى أنا وصديق عمرى مختار حمودة الذى شاء الحظ الحسن أن يكون زميلى فى المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية وأن يعمل كلانا فى البحث الميدانى الراصد لما يجرى فى المجتمع المصرى من تحولات انفتاحية كاسحة لكل أعراف وتقاليد وأخلاقيات المجتمع المصرى.. كذلك شاء الحظ الحسن أن تكون هذه الغرزة بالذات دون كل الغرز - لشهرتها وسحر موقعها فوق أكتاف حى تجارى زاخر- أحد أهم الميادين الذى يفرز فيها المجتمع المصرى مكامن أسراره وظواهره الطبقية ومدى انتعاش حركته الاقتصادية ولقد فهمنا من قعدات روادها ما لم نفهمه من تجولنا الطويل فى أعماق الحوارى والأحياء العشوائية المغبونة برغم أننى ومختار يسكن كل واحد منا فى عشوائية متاخمة لحى كبير مهيب حيث نخادع زملاءنا وأصدقاءنا وسائقى التاكسى حين أزعم أننى أسكن فى مصر الجديدة ويزعم مختار أنه يسكن فى حى الدقى.

وكان يجب فى حقيقة الأمر. عندما يصطدم كلانا بسائق التاكسى أثناء المرواح آخر الليل أن يقول مختار بصراحة إنه يسكن فى عزبة الصفيح وأقول إننى أسكن فى عزبة العرب، ليكون السائق على بينة من أنه سيخوض مجاهل وعرة. كنا فى مقام العينات التى

تقوم عليها أبحاثنا، ولكن استغراقنا بولع واستمتاع فى شخصية الباحث أتاح لنا فرصة أن نضع أنفسنا فى مكانة فوقية للنظر جيدا من خارج الذات، إلا أننا ما لبثنا حتى استمرأنا هذه الوضعية مخدرين بزهو الانتماء ـ ولو كذبا ـ للنخبة، فأدمنا لقب الباحث أو الأخصائى الاجتماعى بنفس القدر الذى أدمنا به الجلوس فوق هذه العلواية الساحرة حيث القاهرة كلها من تحتنا طوابق من سحب قاتمة لعلها زفرات كائنات خرافية تحت هديم كونى طال به الأزل ولم ينفد غباره بعد بل هو فى ازدياد.. فيما مضى كانت العصارى والأمسيات تمضى فوق العلواية فى غاية من الأنس والمودة بين القعدات المتجاورة، نتناقل البهجة والنكتة والغمزة والقفشة والتعميرة الجيدة والأريحية الحشاشية المعطاءة الدافئة.. إلى أن بدأت عايدة زوج صديقى مختار حمودة تحضر قعدتنا كل يوم، ثم تتحول إلى كابوس مرعب يقريف المزاج ويحرق الدم، لا أذكر متى بدأ حضورها على وجه التحديد إذ إنه من فرط طغيانه يبدو قديما جدا.. الكلام فى الشغل وفى الشئون العامة تراجع تماما، لم يعد ثمة من حديث بيننا إلا الحرم المصون الست عايدة وما جرى منها بالأمس، لكأنهما عدوان لدودان ينفذان حكما من محكمة كونية عليا بأن يناما معا على سرير واحد ويأكلا من طبق واحد وأن يتكفل هو بجميع النفقات حتى وإن نام على الأرض أو طفح الدم أو طفش من البيت!..

كثيرا ما كنت أتشكك فى هول ما يحكيه من وقائع جرت بينهما وتطورت إلى حد التشابك بالأيدى وتبادل أحط الألفاظ وأقبح العبارات أمام العيال والجيران. كنت أعرف أن مختار حمودة موهوب فى الحكى ويستطيع أن يؤثر على بأبسط حكاية سيما أنه لا يتحاور إلا بالحكايا وعمره ما عرف المباشرة فى لغة الحوار، إن قلت له: ما الذى أخرك عن الموعد؟ يحكى لك حكاية موجزة أى نعم وليس لها أية علاقة بالمواصلات أو بأى مواعيد لكنها لا تخلو من دلالة فإن كنت لماحا استطعت أن تلمح على أطرافها سببا يمكن أن يكون قد عطله عن المجىء فى موعده، وحتى إن قلت له: صباح

الخير يحكى حكاية عن واحد من أجمل الأصبحة فى حياته فإن تأملتها اكتشفت بوضوح أنه يقصد العكس تماما، وأن جميع الأصبحة التى عاشها كانت والعياذ بالله.. ولكن ما من حكاية حكاها إلا وتدخل دماغى مشحونة فى معظم الأحيان بالحكمة وبالموعظة وبنبرة تشى بأنه موجوع موجوع موجوع من استنزاف عمره وصحته فى خناقات زوجية قائمة على الدوام لا ينجو هو من جحيمها إلا بأن يهج بعيدا عن البيت طوال النهار ونصف الليل، كنت أتصور أنه يبالغ بل تصورت أنه من فرط ولعه بالحكى يتخذ من سيرة زوجه ملحمة يمارس فيها لذة الحكى، غير أن الحرارة التى كان يحكى بها كانت تنضح صدقا يتصبب على جبين كلماته العرقانة من لهب حارق فى مشاعره.. عندئذ يتبين لى العكس تماما، يتضح أن موهبته فى الحكى نتجت فى الأصل عن تراكم الوجع، إنه إنسان سجين أنجب من عايدة أربعة عيال جاءوا كلهم على سبيل الخطأ من مواقعات جنسية لم يكن لها أى معنى أو طعم أو ضرورة، يصعب عليه أن يطلق فيحرم العيال من أمهم، يخشى أن يرحل بهدومه مكتفيا بإرسال المرتب لها كل شهر فيفسد العيال ويصيروا يتامى فى حياته، ولقد جرب جميع الأساليب لردعها والسيطرة عليها وإخضاعها، من خصام إلى ضرب مبرح إلى شتائم قاسية، فما كان منها إلا أن بادلته الضرب بالضرب وهى قوية البنيان بورسعيدية بمبوطية مكشوفة الوجه مسترجلة عند اللزوم، أما الخصام فليس يعنى شيئا عندها، إنها مستعدة لأن تحتمل هجرانه ثلاثمائة عام متصلة، فإن أراد هو الجنس فليطلبه سعيا إليها بتقديم العرابين والقرابين من هدايا ومن تلطف لعدة أيام تنتهى ذات لحظة من ليلة يكون فيها قد عمى من التحشيش وشرب البيرة وأكل المنزول حيث تتغافل هى عنه فتسمح له باغتصابها لمدة خمس دقائق على الأكثر ينهد بعدها شاعرا بالذلة والندم، وفى الصباح ينسى تماما أنه فعل، لكنه يظل طوال النهار مكتئبا منحرف المزاج عصبيا يلوش الزملاء ويخبط فيهم دون أن يدرى ثم يرتد فيعتذر برقة ونعومة إلى حد الإشراف على البكاء.. ليس أمامه من

منفذ للتنفيس عما هو فيه من كرب مقيم سوى الفضفضة لصديق حميم، غير أنها فضفضة تأخذ شكل المشاهد التفصيلية المثيرة المدهشة، أضبطه مستمتعا متلذذا فيما يقول "بنت الـ (......) كسّلت تقليلى بيضتين! كسلت حتى تعمل كباية شاى يا دوبك هو طبق فيه حتة الجبنة القريش وعودين جرجير ورغيف وأنا لسه دافع لها خمسين جنيه مكافأة العشر تيام اللى قبضناهم أنا ماطقتش! بضهر إيدى رحت ضارب الطبق نطر فى وشها وخد عندك: يا سافلة يا تسول مستخسرة فى الخدمة؟ زراير ما تخيطيهاش! هدوم ما تكويهاش! ووش زى فردة الجزمة بوزه يقطع الخميرة من البيت إتفوه! وتنى خارج ورازع الباب ورايا! اتهزت الجدران واتخضوا الجيران!"، وينفرج حنكه الشهوانى الواسع عن ضحكة هستيرية لكنها تقطر طيبة وإنسانية مهيضتين.

أمسيت متعاطفا معه، استلبنى كثيرا ما كنت من فرط غيظى أتخيل نفسى فى مكانه حتى أصبحت مهموما بالتفكير فى المقاومة والبحث فى كيفية الدفاع عن كرامتى إذا لا قدر الله ابتليت بمثل هذه البلية، من فرط تعاطفى معه صرت أنسى أن هدومى دائما نظيفة مكوية فى مقابل هدومه المترهلة، أنسى أن بيتى يطبخ كل يوم من أجل أن أجد لقمة طازجة وأننى عزمته على الغداء كثيرا فى مقابل أنه يعزمنى فى مطاعم الحسين ووسط المدينة.. صرت أنسى هذه الفروق التى تؤكد اختلاف حالى عن حاله ويترسخ فى باطنى شعور عدائى قوى ضد الزوجات والحياة الزوجية بوجه عام.

يعنى أكاد أكون قد تبنيت موقف صديقى بأشد منه حرارة وانفعالا.

إلا أننى ما لبثت حتى تفتحت عيناى فجأة على واقع صادم شديد الإيلام لقد بدأت ألاحظ أن زوجى التى ظللت طوال عمرى أحلف بحياتها أصبحت تكاد تكون نسخة طبق الأصل من عايدة لا أذكر متى بدأت تتجرأ على وتبادلنى الشخط بصوت أعلى بل توجه لى نظرات اشمئزاز تشيلنى وتحطنى كأننى فى نظرها حشرة خبيثة.. يا للمصيبة! هل علمت عايدة بما نحكيه عنها فالتفت من

ورائى وتعرفت على زوجى ونفثت فيها سمومها أوغرت صدرها بل دربتها على السلوك الذى تفعله مع زوجها فى الفراش بأن تكون جثة باردة بليدة لا تتزين بل لا تخلع هدوم المطبخ، انخفض مستوى الطعام، ومستوى النظافة تراكمت ثيابى على الغسالة، كثرت المناقشات التى ما تكاد تبدأ حتى تصير خناقة يفلت فيها اللسان.. فى إحدى هذه الخناقات رفعت يدى لأضربها فكانت أسرع منى فى ضرب ذراعى بعنف ترنحت منه. فزعت دخت تهاويت غبت عن الوعى. بعد فترة قيل إنها عشرة أيام تماثلت للشفاء ناجيا من ذبحة صدرية بمعجزة إلهية، طوال فترة النقاهة كان السؤال يلح على: كيف حلت شخصية عايدة فى شخصية زوجى فى حين أن الواحدة منهما لا تعرف الأخرى على الإطلاق ولم ترها أو تسمع حتى اسمها؟.. رحت أغوص فى مشاعر ضبابية، لكننى سرعان ما صفوت بمجرد أن وضعت زوجى رأسها فوق صدرى وراحت تحملق فى عينى بنظرة عتاب عميقة بعيدة الغور، رأيتنى أسألها: ما الذى أصابنا؟ قالت والدموع تفرفط نفسها على خديها: اسأل نفسك ماذا جرى لك أنت؟ قلت: ماذا جرى؟؟.. انبرت تحكى بحرارة نفس الحرارة التى يحكى بها مختار: كيف أننى جرحتها باللفظ وبالفعل ليلة كذا، كيف صرت غليظا معها بدون مبرر، وأين كنت أخبئ هذا القاموس البذىء الذى كنت أغمرها بمفرداته كيف تطاولت عليها بنظرات شك سوقية بل كيف طاوعنى ضميرى ورميت عليها يمين الطلاق عديدا من المرات دون أن أدرى؟.. هذا إذن هو السبب فى حجب نفسها عنى فى الفراش طوال الأشهر الأخيرة؟! يا ربى!.

من فرط الشعور بالخجل والخزى غمرت رأسها ويديها بالقبلات، فى لحظة ضوء خاطفة أردت أن أعتذر لها بأن الذى فعل بها ذلك لم يكن أنا، إنما هو شخصٍ آخر احتل عواطفى ثلاثين عاما فنقل إلىّ مأساته لقد كنت مغفلاً حقا! كنت صفيحة قمامة يدلق فيها صديقى نفايته الذاتية التى اتضح أنها أشد فتكا من النفايات الذرية فأجىء أنا من غفلتى لأدلقها فوق حريمى إلا أننى أحجمت واستحسنت فكرة إعادة عقد القرآن كأننى أوقع عقداً جديداً مع الحياة.

أعصابى تعبت يا أستاذ ويجب أن تعرف أننى بطلة فى قدرتى على تحمل الوحدة والفراغ والكآبة!.. عندى أموال تكفينى حتى الموت لكنها عاجزة عن تطبيب نفسى!.. ولكن قل لى: "ما مدى معرفتك بالباشمهندس؟.."

نزف كبرياء مهيض

أشعر بأنى مهمل فى حق أستاذى المهندس الدكتور سعيد البدرى، لابد إذاً من انتهاز هذه الفرصة للاتصال به وتهنئته على فوزه بجائزة الدولة التقديرية، ولكن، أليس من الأفضل أن تكون برقية؟ على أى عنوان ياترى؟ إننى مع الأسف لست أعرف عنوان بيته ولا مكتبه الاستشارى الجديد.. فلأكلمه فى منزله، إن رقم الهاتف المدون فى مفكرتى قديم جدا، ومنذ عشر سنوات على الأقل لم أطلبه فيه، هل أنا كلمته فى منزله من قبل؟ نعم؟ أظن! لا! لا أظن! لا أذكر!.. دائماً أبدا كنت أكلمه فى مكتبه فى وزارة الإسكان لكنه منذ أحيل على المعاش وغادر مكتبه فى الوزارة منذ حوالى عشر سنوات لا أذكر أنى هاتفته فى أى مكان، إنما كنت ألتقيه صدفة فى بعض المؤتمرات الدولية أو الندوات المحلية، وأقرأ مقالاته فى جريدة الأهرام ومجلة الأهرام الاقتصادى وكثيرا ما علقت على بعضها فى رسائل الأهرام.

الرقم يبدو أنه من سنترال المعادى، أضفت إليه الرقم المضاف من السنترال كما نبهتنى سكرتيرته الآلية مما طمأننى أن الرقم لم يتغير.. جرس، صوت ارتفاع السماعة: ألو، الصوت نسائى رزين ملىء بأنوثة عتيقة شائخة لكنها ذات نكهة كلاسيكية قلت فى وجل:

- "مساء الخيريا افندم!"

صوت اعتاد السيادة والسيطرة:

- "أهلا بحضرتك!"

- "أقدر أكلم سعيد بك البدرى من فضلك؟"
بركان تفجر:
- "يا أفندى ياقليل الذوق قلت لكم ميت مرة زفت الطين ده ما عادش موجود فى الرقم ده! إنتوا ما بتفهموش؟! بتحبوا التهزىء؟!"
- "العفو يا افندم هو ده مش بيته؟!"
- "يا متخلف لم يعد البيت بيته من خمستاشر سنة!"
تراك.. أغلقت السكة فى وجهى
الصدمة دوختنى.. ما كان يدور بخلدى مطلقاً أن المهندس الدكتور سعيد البدرى الاستشارى العالمى وأستاذ أجيال من خريجى كلية الهندسة بجامعة القاهرة يمكن أن يكون قد ارتبط ذات يوم فى حياته بمثل هذا المستوى من سلاطة اللسان والخشونة، وهو الرجل الذى يذوب رقة من فرط الرجولة الآسرة الواثقة، أول شىء يتعلمه منه تلاميذه هو الأدب الجم، عفة اللسان، طهارة اليد، عزة الكبرياء، بعد هذه الأرضية الراسخة من الاحترام فى أرقى صوره وأجلى معانيه يأتى ما يتلقونه عنه من علم اتسم دائماً بالغزارة والثراء والبذل، ليس يبخل على طلابه بل يفيض عليهم ويشرح ويعيد الشرح ويضرب الأمثال لشرح الشرح، يأنف من بيع المذكرات، ويكره الأغبياء، ويشتغل هو ومكتبه بالمجان إذا طلبوه للمشاركة فى مشروع قومى، من ير تواضعه الشديد لا يكاد يصدق أن هذه الشخصية البسيطة المتسامحة الودودة هى صاحبة ذلك الاسم العالمى الذى يرن فى المحافل الدولية كالموسيقى الطروب، إننى أشك بل إننى على يقين قاطع أن هذه السيدة التى ردت على الآن لا يمكن أن تكون زوجه أو بنته أو أخته أو أى أحد يمت له بصلة قربى بل هى لا يمكن أن تكون حتى خادمة، لأننى وغيرى من تلاميذه لا نتصور خادمة تعمل فى بيته إلا وتكون على قدر من الذوق والأدب، على الأقل لن تتلفظ بمثل هذه المفردات السوقية ولن تغلق السكة فى وجه المتكلم.
فجأة رن جرس هاتفى، نفضنى من فرط الخضة غير المتوقعة، وأنا متوحد مع نفسى، اغتظت كأن أحداً رمانى غدرا بسهم فى

مقتل، تلكأت فى رفع السماعة، نظرت فى الشاشة التى تعكس رقم من يطلبنى، عجيبة فعلاً عجيبة، إن الرقم الذى يطلبنى الآن هو نفس الرقم الذى طلبته أنا منذ قليل، رقم هاتف منزل المهندس الدكتور سعيد البدرى، حيث توجد هذه السيدة التى عاملتنى بغلظة، ترى هل تود أن تعتذر، ربما، هل سأقبل اعتذارها؟ أظن أنه من الواجب أن أعطيها فرصة ثم أرى، يجب أن أشعرها بأننى وإن أهنت منها بغير ذنب فإنه يبقى بيننا ما يُوجب الود والاحترام، يوجد بيننا أستاذى الذى أدين له بفضل عظيم المهندس الدكتور سعيد البدرى، وأياً كان رأيها فيه الآن فلا هى ولا نساء الأرض كلهن بقادرات على زعزعة رأيى فيه، واحترام مصر كلها وتقديرها له، الرنين يتواصل بإلحاح، رفعت السماعة: آلو، قلتها خافتة وبتحفظ.

- "آسفة يا أستاذ! أنا.. لا تؤاخذنى!.. أنا أصلى سئمت طهقت من العيشة وحدى فى فيلا من دورين تحوطها جنينة موحشة فى النهار فما بالك بالليل؟.. عيالى الأربعة مهاجرون: اثنان منهم ولدتهما فى نيويورك حينما كان أبوهما يدرس لبحث الدكتوراه، عدت بهما إلى مصر فعلمتهما مصر فى كلية العلوم، وسافرا إلى نيويورك فى بعثة دراسية فلم يرجعا! إنهما بجنسية أمريكية أصلا! البنتان متزوجتان، واحدة فى هولندا والثانية فى كندا، عششتا هناك ولكل منهما بيت ملك!.. فين وفين حتى يتذكرنى واحد منهم بتليفون أو جواب!.. ياما أشطرهم فى دعوتى للإقامة عندهم هناك أو هناك، لكن هل أترك بيتا أنا سيدته وعلى مقربة منه مدفن أمى وأبى وإخوتى وكل سلسال عائلتى لأعيش فى بيت أصير فيه محل عطف كالمتسولة فى بلاد لست أحبها، ولا أتمنى أن أدفن فيها؟.. أعصابى تعبت يا أستاذ ويجب أن تعرف أننى بطلة فى قدرتى على تحمل الوحدة والفراغ والكآبة!.. عندى أموال تكفينى حتى الموت لكنها عاجزة عن تطبيب نفسى!.. ولكن قل لى: "ما مدى معرفتك بالباشمهندس؟.."

- "أنا تلميذه درست على يديه فى كلية الهندسة"

- "هل تراه كثيرا؟ ما آخر مرة رأيته فيها؟"
- "بصراحة منذ.. منذ.. مدة طويلة من يوم ما أحيل على المعاش!"
- "أو هووه!.. وما الذى ذكرك به الآن؟!"
- "جائزة الدولة التقديرية! أردت أن أهنئه!"
- "ألم تسمع بأننا انفصلنا منذ خمسة عشر عاماً"
- "لا والمصحف! حضرتك صدمتنى الآن بهذا الخبر!"
- "فى يوم من الأيام كانت شغلتى طوال النهار والليل أن أرد على ناس يطلبونه فى التليفون!.. يا ناس هو لم يعد هنا! انفصلنا! لست أعرف عنوانه! لا أعلم عنه شيئا!.. ولكن لا فائدة! يطلبونه مجددا!.. أشتمهم! ألعن آباء الذين خلفوهم! أقفل السكة فى وجوههم! يطلبونه أيضا!.. أحيانا - صدقنى - أغلق السكة فيرن الجرس فى الحال بواحد جديد يطلبه!.. الجميع مصرون على أنه مقيم معى فى البيت وهو - صدقنى - مقيم ليل نهار فى كل ركن فيه لا يغيب سوى جسده بل إن جسده - صدقنى - كثيرا ما يخايلنى فى الصالة أو فى البلكونة أو فى حجرة مكتبه، أكاد أراه رؤية العين خارجا من الحمام إلى مكتبه فأجرى لأمسك به فلا أجد شيئا بين يدى فأكاد أجن يا أستاذ!.. تصور أنت عذابى يا أستاذ.. ما بى أننى أراه حاضراً بلحمه وشحمه أحيانا دون أن أستطيع الإمساك به! وما بى رنين الهاتف المتواصل يسأل عنه دون اعتراف بأنه غادر هذا المكان ربما إلى الأبد! فهل تستكثر علىّ انفجارى فيمن يكيدون لى بطلبه المستمر فى التليفون؟!.. لست أذكر عدد الذين انفجرت فيهم وتعلمت قلة الأدب والسفالة على أقفيتهم.. المهم أنهم خفوا شيئا فشيئا إلى أن صدّقوا بأن هذا البيت لم يعد بيته وهذا الرقم لم يعد يخصه فكفوا عن طلبه عندى!.. سنوات طويلة مضت حتى نسيت أنا نفسى أننى كنت ذات يوم زوجة للباشمهندس سعيد البدرى، وأننى أنجبت منه أربعة أولاد بأربع أسر كبيرة فى هولندا وكندا ونيويورك حتى شبحه لم يعد يظهر.. ماصدقت أن طاب جرحى إلا وأفاجأ بحضرة جناب حضرتك تطلبه عندى!.. لقد

فزعت: ما هذا المتخلف؟! أمعقول أن هناك من لا يزال يعتقد أن هذا البيت بيته حتى لو كان شخصا قادما من المريخ؟.. انفجرت فيك غضبا عنى، ولكن بعد أن وضعت السماعة غاضبة فوجئت بشبحه يطبٍ فى الحال كدوامة الريح!.. رأيته خارجا من حجرة مكتبه ممسكًا بالمسطرة الحديدية متجها بها نحوى والشرر يتطاير من عينيه، وأنا أتراجع بظهرى فزعة ونادمة على عنادى لأننى أدرت أسطوانة الموسيقى الكلاسيكية الصاخبة، ورفعت صوتها على الآخر، لكى أرغمه على الخروج من عزلته ولو لبرهة، أتفاهم معه فيها على كثير من المشاكل المؤجلة بيننا من سنين طويلة ومشكلتى أننى دائما أنسى أنه حمول حمول، ولكن آه من ثورته: اتق شر الحليم إذا غضب!.. أعترف بأننى ياما أوصلته إلى حالات غضب كهذه كاد يفقد فيها صوابه.. وفى واحدة منها وقع يمين الطلاق ثلاث مرات، فى كل مرة ثلاثة أيمانات، يعنى ليس من سبيل للعودة.. هو قيمة عظيمة لكن حمله كان ثقيلا على كتفى!.. قل لى من فضلك: ألم تسمع أى خبر عن حياته الخاصة؟.. على كل حال أنا لما شفته حاضراً فى بيتى فرحت رغم الخوف!.. ندمت على أنى شخطت فيك!.. أشعر الآن بأن الآية انعكست: أتمنى أن تعود الاتصالات من جديد أضعاف ما كانت فهى تؤنس وحدتى!! مستعدة أن أعمل سكرتيرة للرد على طالبيه! سوف أرد عليهم بكل رقة واحترام! سأقول لهم إنه فى الشغل! كلموه فى مكتبه إنه مسافر! أى رد والسلام!.. و.."

سكت الصوت تماما، خيل إلى أنى سمعت صوت وقوع السماعة مع صوت نهنهة بكاء سرعان ما انكتمت أخذت أهتف: ألو! ألو! ألو!.. وأخيرا وضعت السماعة فلاحظت أن يدى ترتعش. كنت على وشك الانفجار فى البكاء، شعرت بضرورة الاتصال بالمهندس البدرى بأى شكل، ما لبثت حتى تراجعت عن فكرة الاتصال إلى أن تبرأ مشاعرى من أوجاع ما ألقى فى بحيرتها من صديد جرح أطال العناد كتمانه، فلم تعد النفس الأمارة بالسوء - وقد تسممت - بقادرة على نكرانه.

"يفتح عينيه فى الصباح فيرى الشمس التى يعشقها مشرقة فى عينيها، فيضئ وجهه، تفرج القوقعة عن الطفل النبيل المطبوع على المودة، يحكى لها عن أمه عن إخوته عن طفولته فى مخيمات حرس الحدود ولكن لا يجئ بسيرة أبيه إلا نادراً.."

مقام الضوء

وهى فى طريقها إلى بورسعيد لاحظت أنها قد أصبحت مألوفة لجميع ركاب خط القاهرة بورسعيد سواء فى التاكسى أو أتوبيسات السوبر جيت. لاحظت كذلك أنهم يلاحظون أنها لم تعد وحدها بل برفقتها صبية هى ابنتها الوحيدة التى كانوا يرونها منذ سبع سنوات طفلة تنام على حجرها أو تتعلق بثوبها؛ الآن هى صورة طبق الأصل من المرحوم أبيها ولهذا فهى تحبها بعمق برغم أنها لم تأخذ منها سوى عينيها اللوزيتين اللامباليتين كعينى أمها؛ كلاهما هى وابنتها روز - تتجنبان نظرات الإشفاق التى تلامسها من بعض من يألفونهما، إذ أنهما تلبسان الأسود فى أسود طوال سبع سنوات مضت.

كانت تجلس بجوار شباك السوبر جيت فوق الكرسى المترفع الملاصق للباب ، وروز لصقها على الكرسى الملاصق. الأرض من تحتها تسابق ذاكرتها فى الجرى فى نفس الاتجاه المعاكس لسير الأوتوبيس والزمن: ترى نفسها الآن فى اللوحة التى رسمها لها زوجها الفنان الراحل. ما أروعها؛ جسدها يقشعر، تتوهم كأن عفريتاً من الجن رسمها وكان قادراً على استنطاق وجهها، لقد رسم روحها فى كل تقاطيعها إذ هى جالسة فى حالة انكسار نفسى؛ لقد رسم تعاستها مع أنها كانت لا تزال

عروساً فى شهرها الأول؛ كان يدرك أعماقها، كان يتأسى من أجلها، خطوطه وألوانه وظلال ولمسات فرشاته العبقرية تؤكد عمق حبه لها وإشفاقه عليها، تؤكد نورانيته وفيض إنسانيته؛ هذه اللوحة ليست مجرد رسم لها يتطابق مع حالها إنما هى قبل ذلك رسالة فى منتهى البلاغة موجهة إليها تعلن عليها حبا ممزوجاً بمرارة عجزت عن إسعادها على النحو الذى تستحقه؛ الفنان الحيى الخجول الصموت تنطق لوحته بكل ألوان العبارات، وعبارات الألوان شارحة عمق ما يشعر به الفنان من ذنب تجاهها، فى حين أنها هى كانت مستعدة للفناء فى سبيل إسعاده سعادة حقيقية ولو للحظة واحدة .. إنها تشعر دائماً أنه برغم بساطته وفقره وركود أيامه أكبر من أن يكون زوجها، حتى وهى تناديه فى البيت باسمه المجرد مسعود، كانت سرعان ما تنتبه فتتكمش نفسها خجلاً من الإجتراء على هيبته؛ حتى وهو ينام على صدرها يكاد يبكى من فرط الرقة طالباً منها أن تغفر له هذه الحياة التعيسة التى لا تكاد تفى بالضروريات.. لقد تضاءلت موهبتها البدائية كما تضاءلت شخصيتها أمام مواهبه الفذة.. كانت تحلم أن تكون أديبة تكتب القصص مثل أخيها الكبير، لهذا جاءت من بلدتهم فى محافظة المنوفية لتقيم معه وتبدأ بمساعدته فى عرض تجاربها البدائية على الصحف والمجلات بحثاً عن منفذ يقربها من ساحة الوهج والنضج. كانت كذلك عاشقة للفن التشكيلى وكانت بعض لوحات الرسامين المنشورة توحى إليها بأفكار قصصية تحاول كتابتها.. المجلات الثقافية التى ينشر فيها أخوها قصصه القصيرة كانت تقرؤها من الغلاف إلى الغلاف؛ فى واحدة منها ملزمة ملونة ثابتة للفن التشكيلى يحررها مسعود جاويش، أدمنت قراءتها وافتتنت بلوحاته بأسلوبه الرصين العميق المبتكر فى نقده لمعارض الفن

التشكيلى، مثلما افتتنت بلوحاته وموتيفاته التى رأتها فى بعض المجلات.. سبحانه وتعالى يربط بين قلوب تتباعد بينها المسافات والأزمنة والأحوال، يرتب لتلاقيها بأهون الأسباب وأحياناً بصورة فكاهية كالنكتة؛ ليلتذاك هو وأخوها يجلسان على مقهى زهرة البستان فى انتظار موعد ندوة الثلاثاء فى أتيليه القاهرة؛ رفع أخوها ذراعه بالتحية لواحد يجلس على ترابيزة على الرصيف لصق ورشة كهرباء السيارات؛ كان رجلاً نحيلاً يرتدى قميصا وبنطلونا مترهلين، على وجهه نظارة طبية سميكة تبتلع ملامحه المقبوضة المتجهمة بحاجبين معقودين، يضع ساقاً على ساق، سمت من كبرياء شفاف يُغلف كيانه الشديد التواضع كورق السلويفان النقى، منكب على الترابيزة فى جلسته الجانبية، بيده اليمنى قلم رصاص يشخبط به على كراسة رسم من كراريس التلاميذ، وبيده اليسرى رغيف من الخبز البلدى راح يقضم منه فى لذة كأنه يقضم من قرص من الحلوى، وليس ثمة من غموس، إنما توجد كوبة الشاى الخمسينة يلثمها بين قضمة وأخرى.. وجعها قلبها، تصورته عاملاً تعيساً من عمال الورشة المجاورة، نازعتها الرغبة فى أن تقتحم محل البقال المجاور للورشة، وتشترى منه جبناً وزيتوناً وبسطرمة ولانشون وتكون بالمرة تصبيرة لثلاثتهم.. قبل أن تفعل فوجئت بأخيها ينتقل ليجلس معه فانتقلت هى الأخرى بالضرورة؛ فوجئت بأن ما كانت تظنه شخبطة إذ به مدينة غارقة فى الضباب وفى مستنقعات ترتفع منها شجيرات وورد وأطيار شاردة. من إشعاع الخطوط حددت أن يكون هو الذى فى بالها؛ سرعان ما قدّمه أخوها لها: الفنان التشكيلى مسعود جاويش.. لم تنتبه كيف قدمها أخوها له؛ لكنها رأت وجهها فى وجهه، فى ابتسامته الصامتة فى عدستى النظارة فى إحمرار الخجل على خديه الناحلتين فى

يده الممدودة للمصافحة بترحاب وسعادة بدت حية حقيقية فى قبضة يده على يدها. الغريب أنه فيما بعد قال لها نفس العبارة بحذافيرها، قال إنه رأى وجهه فى وجهها وكان ذلك فى اللقاء الرابع تقريباً، وهو اللقاء الوحيد الذى لم يكن محض صدفة إنما كان بتدبير سابق حيث جاء ليطلب يدها من أخيها وكان أغرب مدخل لأغرب عريس؛ كأنه جاء يقدم لها المسوغات لرفضه لا الإغراء بقبوله؛ قال إن له تجربة زواج فاشلة منذ ستة عشر عاماً، وأن سبب الفشل طبيعته الإنطوائية وطبعه الحاد ورغبته فى التوحد، وأنه منذ تخرجه فى كلية الفنون الجميلة بتفوق قد عُين بوزارة الشباب فى وظيفة شبه فنية عقيم، لشدة تفاهة شأنها لم يترق فيها ولشدة نفوره من الوظيفة الحكومية لم يعرف الطريق إلى سلم الترقى فبقى قانعاً بمرتبه الضئيل يدفع نصفه فى إيجار لحجرات مفروشة فى شقق وبنسيونات، يقضى بقية الشهر على فيض الكريم من رسماية لبعض الصحف إلى مقالة أو قصة قصيرة ينشرها لقاء أجر هزلى؛ أما لوحاته الكبيرة التى رسمها خلال السنين الطويلة الماضية فإنها موزعة على بيوت أصدقائه ومراسمهم؛ وأما اللوحات الصغيرة بالقلم الرصاص وبالحبر الجاف فلديه منها كمية هائلة لا يعرف كيف يتخلص منها حتى يتحرر من عبئها عند اضطراره للتعزيل من مسكن عابر إلى مسكن مؤقت فى حياة تبدو مؤقتة.. لكأنه أيقظ فى قلبها شخصية أمه الرءوم التى لا يحلف إلا بها، فى الحال قررت أن تكون هى أمه وزوجه، شعرت بزهو كبير أن تنال هذا الشرف أن تكون شاطئ الأمان لهذا الفنان الكبير الموهوب؛ بدا الفارق العمرى بينهما معكوساً، فكأنها هى الأكبر منه بسبعة عشر عاماً.. آه من الأيام.. المهمة كانت أشد قسوة مما تخيلت؛ فهذا الفنان الكبير الموهبة، الحامل بين ضلوعه قلب طفل

غرير ونفساً صافية هو فى الواقع مشكلة عويصة شديدة التعقيد؛ كان عليها أن تقضى السنوات الأولى ذاهلة من فرط الحيرة وسوء الفهم والصدمات المتتالية؛ اتضح لها أنه روح نبيلة معذبة، تتناقض تماماً مع الواقع على جميع الأصعدة؛ كانت طفولته الشقية المعذبة قد أنضجت ملكاته خلقت منه فيلسوفاً يصوغ خواطره ورؤاه بالريشة رسوماً وبالقلم قصصاً قصيرة ومقالات نقدية تنضج فكراً قيما، راح يحلم بالبحث عن خلاص له ولطبقته وللشعب المصرى كله من وهدة الهوان ومن خسة النخُب؛ لكن خسة النخُب التى تنتصر دائماً؛ بها يروح الانتهازيون الذين يحوّلون الحياة إلى سيرك كبير لا يلمع فيه سوى من يجيد لعب الأكروبات السلوكية والسير على الحبال؛ لا سوق للقيمة؛ وعلى من يريد اللمعان والوصول إلى المناصب وتحقيق رغد العيش أن يكون مستعدا، للمقايضات والتنازلات بغير حدود؛ أما هو فلن يطأطئ رأسه ولن ينحنى، لن ترغمه الحياة على التنازل عن أى شىء ولو ضئيل من قناعاته.. الكآبة باتت قوقعة سميكة، تجاهد نادية لاختراقها وتكسير حدتها: يفتح عينيه فى الصباح فيرى الشمس التى يعشقها مشرقة فى عينيها، فيضئ وجهه، تفرج القوقعة عن الطفل النبيل المطبوع على المودة، يحكى لها عن أمه عن إخوته عن طفولته فى مخيمات حرس الحدود ولكن لا يجئ بسيرة أبيه إلا نادراً.. من فضل الله عليها أن قوقعة الكآبة عنده خلقت قوقعة مضادة قادرة على الصد والاحتمال؛ كان يضيق بها ويتمنى لو تركته فى حاله فى عزلته إلى الأبد، فاعتادت أن تعطيه حق العزلة فيما هى جالسة أمامه بالساعات. كانت تعشق الأمومة وكان يرفض الخلفة رفضاً قاطعاً لها، كيف يقبل على نفسه أن ينجب عيالاً لهذا الزمن الردىء يستعبدهم؟.. اكتفت بأن تكون أماً له وحده؛ من أجله بحثت عن عمل كى

تساعد فى النفقات، وُفقت إلى عمل فى وزارة الثقافة، وفقت كذلك فى العثور على شقة من حجرتين فى مساكن شعبية بالجيزة؛ عندئذ رضى بأن يحقق لها الأمومة لو لمرة واحدة، فجاءت ابنتهما روز التى أشاعت فيه البهجة؛ لكن القدر استكثر عليه فرحة الأبوة وهو يستعد لإدخالها الحضانة؛ كان قد أصيب من قبل بجلطة دماغية نجا منها فما أن تماثل للشفاء تماماً حتى أصيبت الدماغ بنزيف لم يستطع النجاة منه.. هل مات حقاً؟. دائماً تهرب من الإجابة مع أنها حققت وصيته ودفنت جثمانه فى بورسعيد.

لهفتها القديمة على الرجوع من العمل إلى شقتها فى الجيزة تحولت إلى بورسعيد.. منذ سنوات سبع وهى تأتى لهذه المقبرة ظهر الخميس من كل أسبوع لتبقى حتى غروب الشمس فتعود إلى القاهرة.. أصبحت تشعر أن هذه المقبرة هى بيتها الحقيقى ولا بد من أن تعتنى به؛ كافحت حتى أطاحت المقبرة بحوش مبنى، اقتطعت منه حجرة مسقوفة مساحتها متر فى متر تتسع لجسدين ضئيلين، أحاطت شاهد القبر بكل ما كان يحبه من زهور وورود، فى كل زيارة تضيف لمسة، زرعة، شتلة، مقعداً، صارت المقبرة تشكيلاً جميلاً، غذّاها جسد الفنان الراقد تحتها بخصوبته ونشر فى المكان إشعاعه النبيل الجاذب، يظل يناديها طوال أيام الأسبوع حيث تشعر وابنتها بأنهما مغتربتان من أجل لقمة العيش فى القاهرة تستعجلان مقدم الخميس بلهفة واغتباط واشتياق العائد إلى بيته الحقيقى حيث ينتظر الأب وحيث تشعر هى أنه ينتفض قائماً ليكون فى استقبالهما وهو أشد اشتياقاً لهما، ولسوف يبقى صاحياً يجالسهما ويلاطف روز.. لم يعد القبر قبراً بل أصبح مقاماً يحتوى ثلاثتهم فى دفء وأمان.. ها هى ذى روز تتقافز داخله فى نزق وغبطة؛ تدخل وراءها؛ لكنها ما تلبث حتى

تتقهقر مرتدة بظهرها وقد لفت المشهد نظرها فراحت تحيطه بناظريها: روز المقبرة والحجرة وأفرع الصبار وشجيرات الورد وهى كأنهم جميعاً إحدى لوحاته الخالدة بنفس الألوان التى كان يهفو إليها، من خلفها البحر ملاءة زرقاء فردتها الريح رفعتها طرحتها سماءً صافية سابغة، على مدد الشوف مدينة بورسعيد كآبية الضوء باركة على نفسها كبقايا مراكب عتيقة لفظها البحر من أزمنة بعيدة، وليس ثمة من قبل حى ها هنا سوى هذا الذى يُطل فى استقبالهما من تحت هذا المقام.

من جب الذكريات ينبثق حلم رومانسي يتلخص في مشهد واحد كان متكررا في سنوات شبابه الأولى ولكنه كان المشهد الوحيد الذي هز قلبه بمعنى الحب، لأول وآخر مرة في حياته يذكر أن ظهر بيت سته كان ملاصقا لقهوة حمدون ذات الكراسي والترابيزات المصنوعة من القش.

مشوار مبهم

فى صباح ذلك اليوم استيقظ سمير بك من نومه مبكرا كعادته قبل أن يُحال إلى المعاش منذ سنتين كان لا يزال يشعر بوحدة عميقة موجعة، لقد تزوج أولاده ورحلوا إلى بلاد بعيدة وراء أرزاقهم، ماتت زوجه بعد صراع طويل مع المرض اللعين، بات لا يأكل لقمة طازجة ساخنة ولا يستحم ويلبس غيارا نظيفا إلا يوم الجمعة من كل أسبوع حيث تجىء أم سيد الشغالة لتطبخ له طبيخ الأسبوع وتغسل له الهدمتين وتنظف الشقة نظير مرتب أكثر من نصف معاشه، وعند انصرافها يشعر أن فى داخله وفى حياته كلها أشياء وأوضاعا كثيرة جدا لا يعرف كيف يغسلها أو ينظفها، من فرط كثرتها لم يعد يعرف ما هى على وجه التحديد ولكن ربما كانت حياته بأكملها - بغير تفاصيل - يجب أن تدخل مغسلة كهربائية، آن الأوان لأن يخترعوها لخدمة الملايين من أمثاله.

على غير العادة كان متحمسا لمغادرة الفراش رغم أنه لم يعد يؤدى أى مهام عملية اللهم إلا حضور بعض اجتماعات بعض اللجان من حين لآخر فى هيئة أو أخرى باعتباره خبيرا متخصصا فى شئون النقل والمواصلات ورئيس مجلس إدارة سابق مشهودا له بالتبحر فى علم الإدارة نظريا وتطبيقيا، عاش به فى الوهم سنوات عديدة ينتظر استدعاءه ليكون وزيرا للتنمية الإدارية فإذا بهم حتى فى مؤسسته لا يفكرون فى التجديد له عاما واحدا بعد وصوله إلى السن القانونية، أصبح لا شغلة ولا مشغلة، لا شىء يسليه أو يملأ

ولو جزءا من فراغه ثم إنه لايزال بصحة جيدة ولديه القدرة على العمل ولكن هل يبلغ به الهوان، وهو الذى كان ينتظر الوزارة، أن يتسوله من أى أحد؟.. برامج التليفزيون مملة وكذابة وتلعب فى الدعارة الجسدية والعقائدية على المكشوف، صحف الدولة تلهج فى مدح ولى نعمتها، الصحف المستقلة تصيبه بالكآبة تجعله يكره مصر واليوم الذى ولد فيه مصريا.. مع ذلك كان يشعر أن وراءه مشوارا مهما، وأنه بات ليلته المنصرمة موقنا أن فى صدره شيئا مضمرا من قديم الزمن، آن الأوان لكى يفرج عنه ويقضيه.. ما هى طبيعة هذا المشوار يا ترى؟ لسوف يتذكره بعد قليل على كل حال، راح وجاء أمام مرآة التسريحة قاصدا دولاب الملابس عدة مرات وباب الحمام مرتين، أخيرا قرر أن يخرج على النظام الذى اعتاده مؤخرا، سوف يستحم ويغير ثيابه الداخلية، لم يعجبه شكله فى مرآة الحوض، قرر حلاقة ذقنه بموسى جديد ليجتث شعره الخشن من شأفته. انعوجت شفتاه بخيال ابتسامة حين لاحظ أن بشرة وجهه لا تزال مشدودة بلا تجاعيد قمحية اللون تصنع مع سوالفه البيضاء غزيرة الشعر جاذبية تلفت النظر عن صلعته الدائرية المقببة كشمندورة عائمة وسط جزيرة من الملح فى مياه ضحلة.

حينما هطلت المياه على جسده من سماعة الحمام المتحركة وقع بصره - خلال الخيوط المائية - على قنينة شامبو راقدة تحت رف الصابونة والليفة، قد مضى عليها فى رقدتها ما يزيد على خمس سنوات، كانت ضمن مشتريات كثيرة اعتادت زوجه المرحومة أن تتسوقها شهريا من سوق المدينة الحرة فى بورسعيد، وفى آخر تسويقة لها اشترت له هذه القارورة من الشامبو الرجالى مع عدة حلاقة كاملة بمناسبة عيد زواجهما الذى لم يكن يحتفل به أحد إلا إن تذكره من قبيل المصادفة، استعمل أدوات الحلاقة وركن هذه القنينة فى رقدتها تلك ونسيها سيما أنه كان يستسهل الصابونة، لقد لفتت نظره عدة مرات لكن بعد رحيل المرحومة حيث انسدت نفسه عن الفرح والبهجة بل أصبح لا يكاد يستعمل الصابونة عند

استحمامه السريع بهدف ترطيب الجسد أو تدفئته لا بهدف تنظيفه أو تلميعه.. ولكن لماذا لا يجرب هذا الشامبو الآن؟ إن أجمل احتفال بذكرى المرحومة أن أستحم بعطرها، هكذا قال لنفسه وهو يدلق السائل فوق الليفة غزت نخاعه نكهة زكية الرائحة أصابته بنشوة مفاجئة أنعشته تحت الماء فى نزق طفولى موحوح، كلما دخل بالليفة بين فخذيه يشعر بلذة فائقة فى مداعبة عضوه بيد مغمورة برغوة الصابون.. يا للمفاجأة الكبرى، إن عضوه يتحرك بل ينتفض بل يتمدد بل يتشدد بل يتصلب محتقنا كأنه فى عنفوان الصبا.. يا للغرابة إنه لم يعهد نفسه هكذا أبدا، على الإطلاق، أبدا أبدا لم يعشق هذه النشوة القوية بهذا العنفوان من قبل، عمره ما كان هكذا مزهوا نافرا متحديا بل قادرا على النفاذ فى القيشانى، فماذا يكون السبب يا ترى؟!

عندما جلس فى غرفة المعيشة بالفانلة والسروال يشرب النسكافيه مع البقسماط راعه أن احتقان عضوه يؤلمه، لعلها الذبالة الأخيرة فى شريط المصباح بعد أن نفد زيته نهائيا.. على كل حال ها هو ذا قد بدأ ينكمش على نفسه عندما بدأ هو ينشغل بالصور المعلقة حواليه على الحوائط، الصور هى التى دهمته وكان قد نسيها منذ فترة، خيل إليه أنه ليس وحده الآن فى الشقة بل إن زوجه وعياله وأقاربه وأزواج وزوجات عياله يرمقونه من براويز الصور، فى الحال شعر بالعيب، بل انزعج كأنهم رأوه فى الحمام سائبا كالطلوقة لم يكن ليحتشم بل كان يحرض ويداعب شأن السفلة معدومى التربية!.. عندئذ انكمش عضوه تماما كأن لم يكن لدرجة أنه تحسسه خلسة فلم يجد ثمة من نتوء يرشد عنه.. أشعل سيجارة، حصر الدخان فى منخرية محاولا التركيز لعله يتذكر ذلك المشوار المبهم المهم معا، كل ما يتذكره الآن أنه كان فى حالة من الضيق والكآبة بلغت ذروتها ليلة أمس ولم يضمحل دخانها الكثيف إلا حينما زحف على مخيلته ذاك الخاطر الذى أشعره بالراحة فمال إلى تنفيذه، غلطته أنه لم يقلب فيه ويتعرف على شىء من

تفاصيله كانت حرية بأن تذكره به الآن، إلا أن ما حدث أنه من شدة فرحته بفكرة المشوار لم يشأ فض بكارتها وهو خارج من أسلاك اليقظة الشائكة إلى ظلام النوم الذى كان يشده بقوة فاستجاب له تاركا ذلك الخاطر على باب اليقظة الموارب فانغلق دونه باب النوم العميق فطمسه.. يذكر قبل مجىء النوم أنه كان يفكر فى وحدته الموحشة وأنه بكى إذ اكتشف لحظتها أنه لم يكن طوال عمره إلا وحيدا، تزوج وأنجب ولكن لا يذكر مطلقا أنه عاش حبا أو مارسه، كثيرا ما تمنى لو يتبادل العواطف مع أنثى، كثيرا ما كان عياره يهدد بالفلتان مع بعض موظفات يرقن له ويجد فيهن تجاوبا مشعا بالعاطفة الأنثوية الناعمة، لكنه ما يلبث حتى يرتدع فمن حسن حظه أو من سوئه لا يدرى أنه كان يصعد سلم الترقيات بسرعة فهو دائما أبدا فى مكانة يجب أن يصونها ويحفظ كرامتها بالسلوك القويم.. ها هو ذا قد نجح بتفوق حتى وصل إلى السقف النهائى ونجح فى أن يربى عياله ويفيد منصبه بشرف ونزاهة وأمانة لكنه بعد إحالته إلى المعاش يتبين له فى ظل الفراغ أنه كان موظفا بمعنى الكلمة، مجرد موظف فى الحكومة وفى الحياة الزوجية فأدى واجبه والحمد لله فى العملين على أكمل وجه لكنه فى النهاية نسى أن يعيش، أن يمارس الحب ومتعه، أن يسافر بغير مهمة عملية، أن يفعل شيئا لنفسه متحررا من جميع الأعباء.

ما هذا الذى حدث؟.. فوجىء بأنه ارتدى أجمل ما عنده من ثياب ذات ألوان زاهية متفائلة.. فوجىء أنه ترك سيارته مركونة تحت البيت وجاء راكبا التاكسى إلى موقف أحمد حلمى.. الآن ينجاب الغموض عن مساحة عريضة مرئية، هو إذا قد جاء إلى هنا بغية السفر إلى واحدة من بلدان الوجه البحرى - عندئذ أخذ طريقه تلقائيا إلى سيارات خط مدينة دسوق، ركب السيارة التى كانت - وكأنها ضالعة فى التدبير - تنتظر فردا واحدا.. هذا جميل، هو إذا سوف ينزل فى مدينة دسوق ليركب من موقفها واحدة من سيارات الأجرة المسافرة إلى مدينة فوة على فرع رشيد.. لماذا إذا

يا ترى وهذا ما سوف يتبينه مع انطلاق السيارة عند انعتاقها من خنقة القاهرة إلى الطريق الزراعى.

ها هو ذا قد صار فى قلب مدينة فوة ـ يا للعجب، قدماه تخادعانه، هو يريد المشى على كورنيش النيل عند مسجد وضريح سيدى أبو النجا المبنى فى قلب النهر، لكنهما قادتاه إلى مرتع طفولته وصباه فى ميدان المسمس، إنجاب الغموض كله.. ها هو ذا الدرب اللولبى الضيق الذى كانت تسكن فى بيت فى نهايته سته أم أمه وشقيقتها الأرمل بعيالها الكثار، إنه ليعشق هذا الدرب كأنه الطريق إلى نبع الحنان الصافى: فى السابعة من عمره كان يتجاسر على السفر وحده من بلدتهم البعيدة إلى هذه المدينة ليمكث فى حضن ستة مدة لا تقل عن ثلاثة أشهر فى كل إجازة صيفية، سته هى التى اشترت له القمصان والبنطلونات والجواكت والطرابيش والأحذية وأنفقت على تعليمه طوال سنواته الأولى إلى أن حصل بالتفوق على المجانية، وأذاقته من الطعوم والحلويات ما لم يكن قد سمع به فى بلدته، أجمل سنوات الشباب أمضاها فى شرفة سته المطلة على شباك مواجه فى نفس الطابق الرابع، يفصل بين البيتين شارع عمومى يطل عليه بيت ستى من الخلف، إلا أن الواقف أو الجالس فى شرفة ستى يكاد يكون بكامله داخل الشقة ذات الشباك المقابل، لم يكن ثمة من رقابة ولكن الأدب حينذاك كانوا لا يزالون يفضلونه على العلم فى تربية العيال.. قلبه ينقبض الآن وهو ـ لأول مرة فى حياته ـ يتجاوز درب سته فلا يندفع إليه فى شغف، كان يعرف أن الجميع قد رحلوا ولم يبق إلا أحفاد لست أعرفهم ولا يعرفوننى فى الغالب هكذا برر لنفسه انجذابه إلى الشارع العمومى الذى خلف بيت سته وقلبه حينئذ ينتفض بقوة أخافته.. من جب الذكريات ينبثق حلم رومانسى يتلخص فى مشهد واحد كان متكررا فى سنوات شبابه الأولى ولكنه كان المشهد الوحيد الذى هز قلبه بمعنى الحب، لأول وآخر مرة فى حياته يذكر أن ظهر بيت سته كان ملاصقا لقهوة حمدون ذات الكراسى

والترابيزات المصنوعة من القش.

رقص قلبه من الفرح إذ وجدها فى مكانها وإن تجدد شكلها وجىء لها بكراس وترابيزات بيضاء من البلاستيك - جلس إلى ترابيزة على الرصيف، يا الله، ما يقرب من خمسين عاما مرت وكل شىء باق على حاله، الشباك المواجه لبلكونة سته لا يزال كما هو كل ما هنالك أنه قد خُيل إليه أن ارتفاع البيت قد هبط عن ذى قبل، جاءه الجرسون، هو نفس الوجه القديم بحذافيره، نفس الجسد الضخم المكرش، ابتسم، فابتسم له الجرسون أفلت لسانه قال: "أظنك المعلم حمدون؟"، انبسط وجه الجرسون، هتف: "أنا حسون ابنه الكبير! وعلى فكرة أنا باشبه على سعادتك! إحنا على فكرة لعبنا سوا فى ميدان المسمس كل الألعاب!"، ابتسم وقال: "مضبوط! أنا سمير!"، هتف حسون فاتحا ذراعيه: "سمير بك ابن بنت الحاجة نفوسة!" طالت القعدة بينهما واحلوت الذكريات التى اتضح أنها كانت غزيرة جدا وهو لا يدرى، أخيرا قال سمير بك وهو يشير إلى شباك الطابق الرابع المواجه: "فاكر الشباك ده يا حسون؟"، ضحك حسون مستغربا: "إلا فاكر! قصدك إيه؟!" قال سمير بك فى صوت متهدج: "كان فيه ملكة جمال تبارك الخلاق! بتقف فيه على طول تملاه نور وعطر! قمر مين وبتاع مين؟ تصدق يا حسون إنى عمرى فى حياتى ما حبيت غيرها؟ كان بيتهيإلى إن جدايل شعرها مخلية لون الشمس برتقانى! كنت بأقعد بالساعات الطويلة أتأمل فى وشها وفى جسمها البديع! وهى مؤدبة جدا! تبص لى وتبتسم وكان فيها حياء ساحر يا جدع! تفتكرها أكيد يا حسون!" وكان حسون قد شرد وتجهم وبان عليه الأسف والأسى ثم زفر من صدره ثم هتف: "طبعا مين ما يفتكرش الشيخة صباح! دى يكفيك الشر كانت عبيطة وفهمها على قدها فكانوا أهلها حابسينها لأنها لو نزلت الشارع تتخطف وتحصل مقتلة على جمالها! عشان كده يا عينى كانت طول النهار فى الشباك ده تشوف اللى تقدر عليه من الدنيا! وفضلت على كده لحد ما عجزت والناس بقت تيجى

تتبارك بيها وتديها حسنة! وف يوم صبحوا لقوها ميتة فى الفرشة وشها بيضحك! تصدق إنهم بنوا لها ضريح والناس بتزوره؟ تحب تشوفه؟" هب سمير بك واقفا: "مرة تانية بقى! الله يرحمها ويرحم الجميع!"، صافح حسون بحرارة ملتهبة، مضى فى الشارع وقد التبست خريطة المكان فى ذهنه لوهلة، سرعان ما استضاءت، فمشى فى حماسة وحيوية وجدية فى اتجاه موقف السيارات متعشما أن يكون فى القاهرة قبل حلول الظلام.

وكانت يده قد سحبت رزمة الفلوس من يد وكيل النيابة وأعادتها إلى جيب البالطو الذى لا يغيره شتاء وصيفا، ثم هتف "يلا يا رجالة بسرعة! ادخلوا وافحتوا!"، ونظر إلى كبرائهم ثم استدرك: "وبعدين نبقى نتحاسب على ترميم التربة!

ما ليس يضمنه أحد

انجعص التربى محمود أبو زيد مستندًا بكوعه على وسادة فوق مصطبة لصق الحوش الذى استعمره جده وحوّله إلى بيت دون اعتداء على غرفة الدفن المنزوية فى ركن قصى، أحاط ذلك الحوش البديع المحندق على مبعدة قليلة منه بنظرة فاحصة تفيض بالتقدير للمهندس الذى شيده على هذا النحو المهيب كمعبد فرعونى.. ثم قرر فى الحال أن يعرضه للبيع، أما أن المبنى فى حد ذاته أثرى قد سجلته هيئة الآثار ضمن المبانى الممنوع هدمها فهذا لا شأن لنا به على كل حال، إنما نحن يهمنا ما فى داخله من تربتين فسقيتين، واحدة للرجال والثانية للنساء، أوراق الحوش فى حوزته، الدفاتر الموروثة عن جده تسجل أن الحوش قد أنشئ بعد هوجة عرابى بقليل، وأنه ملك لشهبندر التجار الزياتين الحاج عبد الرشيد البشتيلى، وأن آخر من دُفن فيه كان حفيدًا لأحد أحفاده مات فى عهد الثورة، ثمة خاطر عبَر خلف رأسه نخسه كالدبوس: لكنك لم تتأكد بعد إن كانت العائلة قد انقرض نسلها أم لا وأنت حينما ذهبت إلى بيتهم المهيب فى حى الحلمية قال لك جيرانهم إنهم لا يعرفون شيئاً عن أصحاب هذا القصر، ومنذ وقت قريب ذهبت مرة أخرى لتسأل إن كان أحد من العائلة لا يزال موجوداً فى هذا القصر أم لا؟ فإذا بك لا تجد القصر نفسه! لقد أزيل وأقيمت مكانه عمارة حديثة اتخذها البنك الأهلى مقراً لأحد فروعه! كل ما قدرت على جَمعه من معلومات أن العائلة كانت تحت الحراسة

وداخلة فى مشاكل مع الثورة! ولكن هل يُعقل أن أحدا منهم لم يمت طوال هذا العمر الطويل؟ الأغلب أنهم هاجروا واستؤصلت شأفتهم من مصر فعلام تنتظر يا أبا حنفى؟ حرام أن يضيع منك هذا الحوش التحفة المعمارية دون أن تنتفع من ورائه بلقمة عيش طرية.

من غده أمر صبيانه فنشطوا، رفعوا المجاديل عن الفسقيتين، نظفوهما من الحشرات، تركوهما للهواء الطلق فى مواجهة الحجرة المُعدّة لاستقبال الزوار مزودة بمفروشات وثيرة أكلتها العتة، ما لبث الخبر حتى شاع فى جميع أنحاء حى الإمام وما جاوره من أحياء القلعة والفسطاط والدرّاسة: حوش الشهبندر معروض لمن يطلب حق الانتفاع به، بدأت وفود الباحثين عن مكان طيب ومهيب لرقدتهم الأخيرة. الحاج عبد السلام زرابينو تاجر الخضراوات بسوق العبور وافق على أن يدفع عشرين ألفا مقابل الإمساك برخصة حق انتفاع يلتزم المعلم محمود باستصدارها له من إدارة الجبانات فى إدارة محافظة القاهرة، لم يكن محاميه معه ساعتئذ ليكتب العقد بينهما بصيغة مستعارة متفق عليها كمبرر لدفع الفلوس: عقد ترميم وتجهيز المقبرتين مقابل مبلغ قدره كذا، من شدة إعجاب الحاج بالحوش وخوفه من ضياعه منه دفع للمعلم عشرة آلاف جنيه دون إيصال، وتعهد بدفع الباقى عندما يمسك الرخصة بيديه، المعلم محمود أبو زيد شرع فى الحال فى تحلية منظر الحوش ليوهم الحاج عبد السلام بأنه صرف على ترميم الحوش، قام بتعقيق سطح الشاهد، دهن حديد البوابة بالسلقون الأحمر، نشر أصص الصبار فى أماكن بارزة، رش الأرض حتى تظل مستحمة بالماء على الدوام فى حالة ترحيب ورعرعة، فلما احلوّ منظر الحوش وسطع جماله تحت قرص الشمس وسط بؤرة من الدمامل والأورام الأرضية الكالحة تتخللها أسوار وجدران بائسة وحفر غويطة مموهة بكثبان الرمل الذى يصفه المعلم محمود بأنه طحين البشر لعلها جحور للثعالب والذئاب المتسللة من صحراء المماليك فى جنوح الظلام، ارتفع قدره فى أنظار الكثيرين، ذاع خبره على نطاق أوسع، وصل إلى علم رجل المال طارق مصطفى

ذلك الملياردير الذى يستثمر أمواله فى الأغذية الفاسدة وفى الملابس، وفى الاتصالات، إنه يموت فى الأبهة، من فرط إدراكه لوضاعة أصله - كما يهمس المعلم محمود فى أذنك دون أن تسأله - يستعير تاريخ غيره ليأوى إليه، ولكى يقنع نفسه بأنه بات من علية القوم بعد الملابس الفاخرة والأحذية الغالية والسيارات الفارهة والمحمول والمأكول والمشروب يجب أن تكتمل الصورة بمدفن ذي عراقة للعائلة، كان المعلم محمود مستوعبا لهذه الصورة جيداً حينما أتاه السمسار برجل الأعمال طارق بك مصطفى، الذى ما إن شاهد الحوش حتى وقر فى ذهنه أن الله سبحانه يعمل لصالحه، لقد وقف مبهورا يسائل نفسه بصوت عال: ما الداعى لشراء أرض فى القطامية وبناء حوش يتكلف الشئ الفلانى فى حين أنه قد جاءته الفخامة كلها لحد عنده وبثمن سيكون بخسا مهما ارتفع قدره؟ لن تعرف الأجيال القادمة أن هذا الحوش الأفخم من قصر ملكى وأشد هيبة من معبد فرعونى قد بناه شهبندر التجار فلان الفلانى فى الزمن الفلانى، إنما ستعرف - فحسب - أنه مدفن عائلة رجل الأعمال الشهير طارق مصطفى، ولسوف يستطيع بنفوذه أنٍ ينظف المكان حوله من هذه الدمامل والأورام، وأن يختط إليه ممراً نظيفا من الحصباء يمكن أن تدخل فيه السيارة.

دخل طارق بك على المعلم محمود أبوزيد بصدر واسع: "أعطيك خمسين ألفا لو سلمتنى رخصة حق انتفاع ما دمت لم تتعاقد رسميا مع صاحبك، رُد له العشرة آلاف ويا دار ما دخلك شر!".

المعلم محمود يبيع أباه مقابل ألف واحد فما بالك بخمسين؟ فى الحال تعاقد كتابيا مع طارق بك وأخذ شيكا بخمسة وعشرين ألفا، فبكّر من غده بتركيز شديد على إدارة الجبانات حتى استصدر الرخصة باسم طارق بك وعائلته: فسقية للرجال والأخرى للحريم، صرف القليل من المال لتسليك الإمضاءات وتشهيل الاختام والتوثيق، فى أقل من أسبوع كان فى البنك المصرى الدولى يصرف الشيكين معا بخمسين ألفا، احتجز العشرة آلاف وحدها، وبقى فى انتظار أن يلتقيه الحاج عبد السلام فيردها إليه.. إلا أن الحاج عبد

السلام كان فص ملح وذاب، شهور طويلة تقارب عاما مضت دون أن يتصل أو يجيء أحد من طرفه ليسأل عن أمر الحوش.

لم يدر بخلده أن الحاج عبدالسلام زرابينو ربما يكون قد أصابه مرض خبيث والعياذ بالله حتم على أهله وذويه السفر به إلى الخارج لعلاجه وهم ناس موسورون.. وهذا ما كان قد حدث بالفعل أثناء ذلك كان طارق بك قد بروز الحوش فجعله تحفة مضاءة بالنيون يسبح فى بحر من الخضرة الثقيلة من داخله ومن خارجه: صبار ونخيلات ولبلاب وزهور ونباتات عطرية، رخامة فخيمة ثبتت على صدر الشاهدين، لافتة نحاسية أفخم ثبتت على ضلع البوابة الحديدية من الخارج، كالون مع قفل بجنزير على البوابة، وفى اليوم الذى كان فيه طارق بك يعاين الحوش بعد تنقيحه وترميمه وتجميله واسترداد صورته يوم تم بناؤه، فوجئ الجميع بتليفونات تطلب المعلم فى إلحاح، والمعلم فى حالة مرتبكة غير مفهومة، ما لبثت حتى اتضحت: جنازة قادمة بموكب هائل من السيارات، إنه نعش المغفور له الحاج عبد السلام زرابينو. أخذوا طريقهم نحو بوابة الحوش، فتصدى لهم رجال طارق بك فى خشونة واستنكار مشيرين إلى اللافتة النحاسية وإلى طارق بك نفسه. توتر الموقف، تشاحن الرجال مع الرجال، صوّتت النساء فى ارتياع، كلمة خارجة من هنا، كلمة متهورة من هنالك، ظهرت مسدسات، ارتفع صوت طلقات الرصاص فى الهواء.. ثمة من كانوا قد اتصلوا ببوليس النجدة الذى وجد الأمر غريبا وخطيرا فما لبث حتى حضر.

تعقد الموقف أكثر، جيء بالمباحث والنيابة فى سرعة تعكس مدى أهمية الحاج عبد السلام من ناحية ومدى نفوذ طارق بك من ناحية أخرى. قال المعلم محمود إنه ليس بينه وبين المرحوم أى تعاقد، إنما المرحوم قابله ذات يوم وأوصاه باختيار تربة نظيفة وترك له عشرة آلاف جنيه عربونا ثم اختفى عاما بأكمله، وهو ليس بمسئول عن أى شيء تجاه المرحوم، ولكن لأنه رجل يخاف ربنا ولا يقبل الحرام فإنه اعترف بوجود عشرة آلاف جنيه فى ذمته للمرحوم وهذا هو المبلغ الأمانة يا حضرة النيابة ظللت محتفظا به أنتظر مجيئه

ليأخذه فجاءنى بعد فوات الأوان. والنيابة وجدت أن كلامه منطقى وقانونى، راجعت الرخصة والأوراق أمام أهل الميت، من ثم فليس لهم أى حق عند المعلم محمود سوى هذا المبلغ الذى يجب أن يُشكر على الاعتراف به ورده.. فى النهاية لابد أن يتقدم العقلاء بعد فشل القوة الغاشمة، استعطفوا المعلم محمود بأن يأخذ العشرة آلاف وفوقها مثلها لو أراد فى سبيل إكرام هذا الميت المحترم الذى لا يليق أن يتعرض لمثل هذا الهوان. الجميع تأثروا بالموقف، راحوا جميعا يرمقون المعلم محمود بنظرة استرحام متفائلة. عندئذ تذكر المعلم شيئا خطيرا جدا لم يكن ليخطر له على بال، تذكر المقبرة المخبوءة فى أعماق الحوش الذى يسكنه، إنها مغلقة منذ مائة عام على الأقل وإنه لمتأكد تمام التأكد من انقراض أصحاب الحوش منذ ما قبل ثورة يوليو، وإنه وزوجه الحاجة أبهة لن يضيرهما فى شىء أن يستضيفا رجلا طيبا كالحاج عبد السلام زرابينو، سوف ينالهما من ورائه رزق وفير.. وهكذا رفع يده شهامة وشجاعة أدهشتهم: "يا رجال أبوكم هذا فى عينى لن يدفن إلا دفنة ملوكية فى حوش الأمير شخصيا! فى بيتى! وهذا شىء لا يقدر بمال! أن يعيش جثمان أبيكم فى ونس وخدمة لا تنقطع! ومرحبا بكم فى زياراته فى أى وقت تشاءون! عندنا حجرات تكفى لراحتكم أياما وأسابيع لو أردتم!".

وكانت يده قد سحبت رزمة الفلوس من يد وكيل النيابة وأعادتها إلى جيب البالطو الذى لا يغيره شتاء وصيفا، ثم هتف "يلا يا رجالة بسرعة! ادخلوا وافحتوا!"، ونظر إلى كبرائهم ثم استدرك: "وبعدين نبقى نتحاسب على ترميم التربة!" استراحوا جميعا لهذا الحل، سبقهم هو ليفتح لهم قفل غرفة الدفن، استعان بمجموعة رجال لدفع الباب إلى الوراء حيث قد غاص فى الأرض والرطوبة وأعاقه صدأ المفصلات.. تم دفن الحاج عبدالسلام زرابينو معززاً مكرما فى مرقد الأمير المملوكى.

استأنف المعلم محمود أبو زيد جلسته اليومية العصارية على مصطبته يسرح الطرف فى فخامة هذا الحوش الذى أحيا المنطقة

وأعطاها ضوءاً وجمالاً وأنساً، وذات عصرية مشابهة، بعد بضع سنين، كان يستريح من تدخين الشيشة فراح يتسلى بقراءة جريدة المساء التى يداوم على قراءتها ليتابع أخبار ابنه لاعب الكرة وفريقه الأهلى. انخطف لونه فجأة عندما وقعت عيناه على المانشيت الكبير. طائرة مصرية تسقط فى نفس المنطقة الخطرة فى المحيط الأطلنطى.. البحث جار عن الصندوق الأسود وعن الجثث.. رجل الأعمال طارق مصطفى وعدد كبير من شخصيات مرموقة كانوا من بين الركاب.. قرأ الحادثة أكثر من مرة، راح يصفق كفا على كف يطلب ستر الله وعفوه وغفرانه، وفى صدره قوله سبحانه وتعالى ما معناه: "وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت".

فى اليومين التاليين كان يترقب رنين الهاتف ويحوم حول حوش الشهبندر الذى آن له أن تفتح فسقيته لتستقبل جثمان المنتفع بها الذى لن يلبث حتى يجىء فور العثور عليه فى قاع المحيط الأطلنطى.. ولكنه بعد أيام قليلة تلقى برقية مكتوبة بالآلة الكاتبة السريعة بحبر باهت وحروف متداخلة كنقط متجاورة يصعب قراءتها، عرضها على كل من التقاه من تلاميذ الحى ورجاله القارئين، فتعثروا جميعاً فى فك ألغازها، لكنهم فهموا بالويم أنه تليغراف قادم من أمريكا يبلغ المعلم أبوزيد - لا توجد كلمة محمود - بأن يُجهز الحوش لاستقبال عزيز لديهم، الإمضاء: صاحب حوش الشهبندر.. عندئذ فهم - بالويم أيضاً - أن فرق الإنقاذ الأمريكية الشغالة فى المحيط التى تصطاد الجثث والحقائب قد عثرت لا شك على جثمان طارق بك وأن أهله قد تسلموه فى أمريكا وبعثوا له بهذه البرقية لينفتح الحوش ويرفع المجاديل ويستعد، بالفعل أمر صبيانه بفعل ذلك، قاموا برش الأرض بالمياه، رصوا عددا من الكراسى، جلسوا فى الانتظار.. فى مساء اليوم التالى، والشمس فى موقف الشفق، حضرت سيارة نقل الموتى، ومن ورائها بضع سيارات ملاكى شكلها أسود مهيب نزل الرجال حاملين الجثمان، لحق بهم صبيان المعلم فحملوا الجثمان عنهم ونزلوا به إلى

الفسقية ومن ورائهم المعلم حيث تولى بنفسه عدله فى الرقدة الشرعية فى اتجاه القبلة، ثم أدى طقوس الترحم، ثم أمر فأعادوا المجاديل الحجرية فسدت فوهة الفسقية، أهالوا عليها التراب حتى اختفت.. عندئذ انتبه المعلم محمود إلى أن أحدا ممن يعرفهم من رجال طارق بك لم يظهر، لكنه رأى أفنديا نصفه أمريكى ونصفه مصرى يتكلم المصرية كأبناء حى الإمام وإن بلكنة خواجاتية خفيفة الظل جداً كاد المعلم يصرخ من شدة الفزع، راح يتساند حتى لا تميد به الأرض، كانت ملامح عائلة الشهبندر واضحة بل منحوتة فى وجه ذاك الأفندى اللطيف الذى برغم ذلك قال له: "ألا يذكرك وجهى بأحد، حملق فيه مأخوذاً: "حضرتك تقرب للشهبندر؟" . قال الأفندى: "أنا حفيد المرحوم.. والمدفون الآن هو أبى! أصغر وآخر أبناء الشهبندر، العقبى لك تجاوز المائة من العمر بأكثر من عشر سنوات! كانت وصيته الوحيدة أن يُدفن فى حوش العائلة فى مصر، هو الذى رسم لنا خريطة المكان مع الوصية! ودوّن العنوان وجميع بيانات الحوش والمدفونين فيه من عيال الشهبندر!" غير أن الأفندى أشار إلى الرخامة واللافتة النحاسية: "لكن إيه ده؟"، وبان الشر فى وجهه، فما كان من المعلم إلا أن نادىٍ صبيانه "واد يا رجب إنت وهو شيل الرخامة دى واليافطة دى حالا! شوف الرخامة القديمة فين وهاتها وركبها مطرحها إحنا متأسفين خالصٍ يا سعادة البيه من كتر الغياب افتكرنا.." لكن الأفندى لم يكن سهلا، استدرجه بصنعة لطافة إلى قسم الشرطة، أخذ عليه تعهدًا بصيانة الحوش وأن يكون مسئولا عنه لقاء راتب شهرى يقبضه إجمالاً بداية كل عام، العجيب أنه فى جلسته اليومية على المصطبة عصر ذاك اليوم قرأ فى جريدة المساء أن الجثث الغارقة اختفت ولم يظفروا منها إلا بجثث قليلة جدا يستحيل التعرف عليها بعد أن نهشتها كائنات البحر المتوحشة.

"ثم قـرصـه المخـرج فى خـده بمداعـبـة ذات مـعنى قـائلا: "صـحـيح أن هذه النجـمـة هى المثل الأعلى بالنسـبـة لجـرذ مـثلك، ولكن عليك أن تتـعلم كـيف تفـصل بين مشاعرك الذاتية ومشاعر الشخصية التى تمثلهـا، كـذلك أن تفـصل بين شـخـصـيـة الممـثل المشـارك والشـخـصـيـة التى يمـثلهـا".

فيدرا الآثمة

هو شخصيا لم يكن يجترئ على هذا الطموح، فكاريمان إذا كانت بالنسبة لغيره مطمحا فنيا، وبالنسبة للكثيرين مطمحا جنسيا فإنها بالنسبة له أشبه بطوطم مقدس، هى عنده تشخيص للحلم الفنى ورمز للفن فى آن معا، وهو دائما أبدا يسخر من طموح الطامحين فى اقتسام البطولة معها لاعتقاده أن أحدا منهم - مشهورين أو مغمورين - ليس يطاول قامتها الفنية التى خلبت لب الجماهير سنين طويلة انفردت فيها بنجومية الشباك والقوة الفنية معا، ويسخط على الطامحين فيها جنسيا ليقينه - لا يدرى كيف - من أنها برغم فتنتها الجسدية الصارخة تبدو أطهر مما يتخيل أولئك السفلة الذين يفكرون بأعضائهم التناسلية لا بعقولهم التى لو فكروا بها مثله لتبينوا أن كاريمان ليس يشغلها فى الدنيا سوى فنها الذى ضحت من أجله بالزواج وبالمتع الجنسية الرخيصة.

ليلة التتويج الليلة.. من فرحته يكاد يصيح بها فى غبطة لكل من يلتقيه فى طريقه إلى مبنى المسرح فى وسط المدينة، مثلما توقع رأى الإعلانات قد علقت على لوحات الشوارع، صورته على "الأفيشات" بجوار صورة أكبر نجمة سينمائية فى البلاد: كاريمان. الآن يستطيع الاطمئنان إلى أن الحلم صار حقيقة، لسوف يحضر الليلة جميع النقاد والصحفيين وكلهم من عشاق النجمة الأولى، بعضهم - مثل الكثير من زملاء دفعته فى بكالوريوس المعهد العالى للفنون المسرحية - يستكثرون عليه هذه الفرصة الخطيرة التى ستضعه على عتبة النجومية، ابتسم

لنفسه حين طالعه وجهه فى المرآة العاكسة إذ هو جالس على الكنبة الخلفية فى سيارة التاكسى: يجب أن يؤمنوا بالحظ وبالقدر، كل الممثلين الشبان يحلمون بالتمثيل أمام نجمته الأولى ولو لمشهد واحد، فما بالك لو كان الممثل لا يزال طالبا فى السنة النهائية وفى دور بطولة مطلقة؟

عزم على سائق التاكسى بسيجارة حينما لاحظ أن الأفيش قد لفت نظره، فلما لم ينتبه السائق إلى الربط بينه والصورة على الأفيش قال لنفسه إنه ليفخر بأنها اختارته بنفسها، طلبت من المخرج - العائد لتوه من بعثة دراسية إيطالية - أن يلعب دور ابن زوجها فى المسرحية وجه جديد ذو صفات جسدية وشكلية معينة، إضافة إلى موهبة التمثيل، وبناء على رغبتها جئ بالنابغين من طلبة المعهد وجرى اختبارهم أمامها بدقة، وقد أشرقت الدنيا كلها حينما تلاقت وجهة نظرها مع وجهة نظر المخرج فى الإعجاب به، وبالفعل يحصل على الدور ويمضى فى تدريباته طوال ثلاثة أشهر فيثبت جدارته يوما بعد يوم.. والليلة سيتم العرض كاملا بالحركة والإضاءة والملابس التاريخية، على جمهور من خاصة المثقفين المولعين بفن المسرح.

فيما هو يعبر خشبة المسرح إلى حجرته فى الكواليس ليلبس ملابس الدور ويسلم نفسه للماكيير يرسم له وجه الدور وملامحه التقاه المخرج آتيا من حجرة كاريمان، فاستوقفه، نبه عليه للمرة الأخيرة أن يكون لينا مرنا فى المشاهد العاطفية التى تدور بينه والنجمة كاريمان، قال له إن تمثيل الخجل فى الشخصية الفنية ليس يعنى أن يكون الممثل نفسه خجلا من الممثلة التى يمثل أمامها، إنه يجب أن يكسر حاجز الرهبة من نجمته المفضلة حتى لا يكون متخشبا فيفسد مصداقية وقوعه فى الغواية، إن الخجل يجب أن يزول عن "الولد" شيئا فشيئا حتى إذا جاء مشهد الغواية كان الولد مطواعا بحيث يقنع المشاهدين بأنه كان فى الأصل مستعدا للوقوع فى الغواية، عليه كممثل أن يشخص هذا بكل ما يملك من خيال وشعور، وفى هذه الحالة عليه أن ينسى أولا وقبل كل شئ أن هذه التى تغويه ليست هى نجمته الشهيرة كاريمان، إنما هى محض امرأة مثيرة خليعة متبرجة حتى إن كانت زوج أبيه.. ثم قرصه المخرج فى خده بمداعبة ذات معنى قائلا: "صحيح أن هذه

النجمة هى المثل الأعلى بالنسبة لجرذ مثلك، ولكن عليك أن تتعلم كيف تفصل بين مشاعرك الذاتية ومشاعر الشخصية التى تمثلها، كذلك أن تفصل بين شخصية الممثل المشارك والشخصية التى يمثلها".

تحت يدى "الماكيير" جعل ينظر لنفسه فى المرآة معجبا بهذه السوالف الطويلة وباروكة الشعر الغزير الأشقر.. لقد صار بالفعل فتى جميلا بل فاتنا بقوامه الفارع الممتلئ الرشيق، كان مستوعبا تماما وجهة نظر المخرج فجعل يفكر فى كيفية أن ينسى أنه يمثل أمام مثله الأعلى فى التمثيل دور مراهق تغويه امرأة شبقة اسمها فيدرا تزوجها أبوه العجوز الثرى، وهى الشابة فى الريعان، كان مهموما مرتبكا مضطرب الأمعاء يكاد يوقن من استحالة الاجتراء على حرمة نجمته، كيف سيأخذها فى حضنه ويقبلها فى شفتيها ويعصرها بين ذراعيه القويتين فى سخونة عارمة حتى وإن كان ذلك مجرد تمثيل،.. راح يستعرض معلوماته عن هذه المسرحية العالمية الشهيرة، "فيدرا" التى تعاقبت على تمثيلها أجيال من عباقرة التمثيل فى العالم، تذكر آخر فيلم مأخوذ عن هذه المسرحية بعنوان "فيدرا الآثمة"، حاول أن يتذكر المشاهد الساخنة ليسترشد بالممثل الإيطالى الذى لعب الدور، لكنه عجز تماما عن تذكر أى شىء، ولا حتى أسماء الممثلين، فخير له إذًا أن يركز على ما يجب أن يفعله الآن.

دقات خشبة المسرح زلزلت كيانه إيذانا بفتح الستار.. سرعان ما تباعدت شخصيته الأصلية بمجرد أن وقف ملقيا على نفسه نظرة نهائية فى المرآة، لقد انتفت شخصيته، اختفت فى المنطقة الخلفية المظلمة صارت مجرد خط ضوئى شاحب يهديه إلى الحركة، الدنيا ما لبثت حتى أشرقت عند دخلته فى أول مشهد، عاصفة التصفيق رجت الأرض فانحنى تحت ثقلها يرد تحية الجمهور، فما أن رفع رأسه بأول جملة حوارية حتى أخذته المفاجأة البهيجة، إنه ليس يرى نجمته الرهيبة التى كانت متحفظة فى التدريبات تعالج ارتباكه بالحنو والتشجيع، إنما هو قد رأى فيدرا، فيدرا الآثمة، بكل فتنتها، نعومتها، ألعبانيتها، المناطق التى كانت مستورة من جسدها كانت أشد فتنة وإثارة من تلك التى تعرت عن عمد يستهدفه بالإغواء فى قوة طاغية يتصدع

من لهيبها الجبل، أصابته نشوة رجولية متحدية.. مضت الوقائع فى سلاسة من وهج إلى وهج.. من خلل الخطر الضوئى الشاحب فى خلفيته الظلماء كان يذكر أن الستار قد نزل مرتين لإنهاء فصلين، وأن دوى التصفيق تتردد أصداؤه بقوة، وأنه قد استسلم للماكيير يصلح فى وجهه بعض خدوش من العرق، وأن طيفا نورانيا ينتمى إلى بنات الحور قد أحاطه من الخلف بذراعين من المرمر، فإذا برأسه قد استقر بين وسادتين على صدر يضخ العطر والحياة والجنة، وإذا بشفتين ساخنتين تطبعان على جبينه قبلة فيها من الامتنان والشكر أضعاف ما فيها من إعجاب وحب، إنها كاريمان شخصيا فاتت عليه لكى تشد من أزره، قالت عيناها المفنجلتان برموش مشرعة فى المرآة إنه لم يخذلها، ثم اختفت فى لمح البصر، بقى منها فى ذهنه شىء ومن بريق عينيها لم يكن رآه فيهما من قبل، إنه بريق الشبق الفاجر الفاجع، أتكون قد اندمجت فى حالة الدور بكل كيانها؟

إن هى إلا برهة قصيرة حتى رأى ذاك البريق شاخصا متاميا يتحداه بقوة حتى لقد التبس عليه الأمر تماما، ارتج، اتسع الخط الضوئى فى رأسه فانتبه إلى أنه قد صار فى قلب مشهد الغواية، فتح عينيه عن آخرهما فاختفى الخط الضوئى فغابت معه شخصيته الذاتية، كان بالفعل قد صار طيعا لينا بين يديها، صار فى قلب حضنها محاطا بذراعيها يتحسس خديه بخديها تصب فى أذنيه لهيب رغبة حقيقية يستحيل مقاومتها، تهمهم تغمغم ينضح صوتها شبقا، بريق عينيها يثبت بالدليل القاطع أنها ليست إلا امرأة ملتاثة بشهوة رعناء عارمة، فإذا هو قد انتقلت إليه حالة الشبق فى ردة فعل بنفس القوة، تعرج الخط الضوئى فى خلفيته صار حلزونيا مشرشراً برءوس مشاعر تخزه فى جبينه تنبهه إلا أن لحظة الشبق احتوتهما وصارت حقيقة فعلية تحت ضوء قرمزى باهت، وأن فيدرا نشوانة مغمضة العينين قد انصهرت فى حضنه، راح يتشبث بالخط الضوئى لعله يعرف كيف ينفصل عنها بالحركة التمثيلية المتفق عليها، إلا أنهما كانا معا فى حالة من البلل، وفيما هى تفتح عينيها فى الظلمة القرمزية لمع فيهما نظرة فيها القليل من اللوم والكثير من خجل مصطنع يعكس شدة التلذذ بما

حدث، لكنه لا يعرف كيف كان الجمهور فى حالة من الإعجاب لدرجة أن التصفيق الطويل أعطاهما فرصة كافية لاسترداد الرشد فى سلاسة ناعمة إلى أن انتهى العرض بنجاح صاعق.

عصر اليوم التالى استيقظ كالفاقد الذاكرة نزل يتمشى فى وسط المدينة أكل رغيف الحواوشى، جلس على مقهى سفنكس الحميم فى شارع عماد الدين فى انتظار موعد افتتاح العرض العمومى. شرب عصير الليمون مع القهوة، جعل يستعيد عرض الليلة الماضية لعله يتذوق طعم النجاح فى أدائه ويرى كيف استطاع أن يلمع فى مواجهة غول تمثيلى مثل كاريمان.. ياللفظاعة ما هذه الكآبة الزاحفة على صدره تخنقه؟ إنه ليس يستطعم شيئا على الإطلاق، إنه لا يكاد يذكر شيئا يبهجه.. نشف ريقه فجأة، أين اللذة الفنية التى كان يمنى نفسه بها؟ هل كان التصفيق له أم لها؟ ماذا؟ يكاد يجزم أنه لم يمثل أمام نجمته الأولى كاريمان، لم يبق فى أعطافه فى مشاعره أى شىء من ذكرى الليلة الماضية سوى عطر امرأة شبقة زلزلته حتى النخاع وأوقعته بالفعل فى الغواية، ضحك ساخرا من نفسه، نفض نفسه قائما يجرى إلى مبنى المسرح.. وجدها فى انتظاره، احتضنته، قبلته فى شفتيه قبلة خاطفة وجلة ثم همست: بعد العرض أنت معزوم على العشاء عندى احتفالا بنجاحنا. نبرة الوعد الأنثوى الحريف هزت أعطافه بقدر ما أعقبها من شعور بالكآبة.. التصفيق هو الذى نبهه إلى أنه قد صار على خشبة المسرح ملتحما بالمشهد.. ثم إن التصفيق ما لبث حتى كف تماما، حلت محله همهمات تشى بزمزقة رافضة بين الجمهور.. ياللكارثة، ما الذى جرى لهما معا؟ ما هذا الهبوط؟ ما أفظع ما يشعر به من سخف، اتسع الخط الأبيض فى خلفيته الذهنية فكأنه تعرض للعرى فجأة، سرعان ما انتبه إلى أنه طوال العرض كان مجرد رجل فتى عملاق وكانت هى مجرد امرأة شبقة، شعر هو أن الفن صار أشبه بجرذ يظهر فجأة ليختبئ وليس لهما من عمل سوى مطاردته للامساك به، إلى أن نزل ستار الختام فاندفع خارجا قبل تحية الجمهور، اصطدم بالمخرج آتيا يلطم خديه، ما إن رآه حتى صرخ فيه فى فجيعة موجعة: زفت وقطران.

زفرت "كحكاية" وهى تفرك يدها فى حجرها ناظرة إليه فى ضراعة ليفك لها سر هذه العملية الغامضة التى حدثت، لكن عبد الجواد كان أكثر لهفة، سأله صراحة: "وإيش بعد اللى عملته ده يا شيخ بسيونى؟!".

فتح المندل

في بلدتنا إلى زمن قريب جداً كان الواحد منا إذا اعتراه شئ من الضيق النفسى والميل إلى التجهم والاسترخاء وعدم الرغبة فى أى عمل وصف الأهل والصحاب حالته بأنها "نِفس" بكسر النون وتسكين الفاء والسين ومعناها أنه محسود، حينئذ يوصونه بالذهاب إلى الشيخ "بسيونى جردة" ليفتح له الكتاب والكتاب قد يكون القرآن الكريم، يأخذ الشيخ اسم الشخص واسم أمه فيجمع عدد حروفهما ويكون الناتج هو رقم الصفحة التى يجب أن يفتح عليها المصحف الشريف، ليكون ما احتوته من آيات أشبه بمرآة تنعكس عليها حالة الشخص وأوضاعه النفسية والمادية والروحية، وعن طريق التأويل والتفسير يستنبط الشيخ ما يجب أن ينصح به الشخص من كفارات وصلوات أو زكاة أو اعتذارات وما إلى ذلك من تصليح للسلوك وترميم للمناطق المخوخة داخل الشخص "المنفوس"، وقد يكون الكتاب واحدا من كتب الطب والكلمة المعروفة فى التراث العربى مثل كتاب الشفاء لابن سينا أو كتاب الحاوى فى الطب المداوى لأبى بكر الرازى، ليستنبط منه دواء لما يعانيه الشخص من وجع فى المفاصل وصداع مزمن أو ارتخاء أو ما إلى ذلك من أوجاع بدنية لها تأثير مباشر على الحالة النفسية وقد يكون الكتاب هو كتاب السحر الشهير "شمس المعارف الكبرى" يفتحه الشيخ ليستقى منه وصفة سحرية لفك المربوط أو لتقوية الباه أو لإبطال مفعول عمل سحرى بالحب أو بالكره، أو كيفية

الاستعانة بعفاريت من الجن فى الوصول إلى الجناة والكشف عن مسروقات.

الشيخ "بسيونى جردة" هو عمى لزم، نجح فى تأمين القاعة الجوانية التى يلتقى فيها زبائنه من الباب الورانى لدارنا، الذى يفتح على شارع خلفى بعيد، لكنه لم يستطع تحقيق السرية بالنسبة لنا نحن عيال الدار كلهم لم يكن يضيق بنا، إنما يكتفى بزجرنا، وأحيانا بتحذيرنا من العبث بأى من هذه القنينات ففيها سموم قاتلة، ومن بهدلة الكتب حتى لا يزعل الله منا ونحن لا نقدر على زعله سبحانه وتعالى، ويوصينا بألا نسأل عما نراه أو نسمعه، ولا نحكى عنه لأى أحد وإلا عاكستنا العفاريت وطلعت لنا فى الليل وحرمتنا النوم، ولعله، على كبر سنه ووفرة حكمته التى يوزعها على الناس كان غافلا عن أن نهيه لنا عن فعل ما لا يريدنا أن نفعله إنما هو فى الواقع يحرضنا من طرف خفى على أن نفعله، على الأقل لنستوثق من صحة تهديداته التى يلقيها علينا بجدية رهيبة حيث تبرق عيناه الواسعتان فنكاد نرى فيهما شياطين وعفاريت تتقافز وتلعب الكرة بأدمغتنا.

وذات صباح صحونا على صوات وضجيج آتيين من آخر حارتنا الطويلة، بالتحديد من دار الحاجة كحكاية المطلة فى آخر الحارة على شارع داير الناحية، كعادة أهل بلدتنا صرنا بعد ثوان معدودة بلدة بأكملها تتجمع حول دار كحكاية، بعضهم يشمر عن ساعديه للمساعدة فى إطفاء حريق، بعضهم يتأهب للدخول بصدره بين المتعاركين يفصل بينهم، بعضهم يتوجس من صوت كلب عوى منذ قليل فوق سطح هذه الدار ينبئ عن جود عزرائيل فى البلدة ولابد أنه أنهى مهمته فى دار "كحكاية"، بعضهم الأخير جاء لمجرد الوقوف على الخبر بدافع الفضول والولع بوقوع أحداث تبدد ملل ركود الحياة فى البلدة ما لبث الخبر حتى خرج من دهاليز الدار متطايرا فوق أكتاف الجموع فصار فى لمح البصر حكاية شبه متكاملة، عروس عبد الجواد ابن كحكاية نطل عليها الحرامى وهما فى سابع نومة فسرق ذهب العروس وفلوس الصباحية ومحفظة

العريس، دار كحكاية منط بالفعل لوجود هديم حواليها يمكن الصعود فوقه، رجح الناس بادئ ذى بدء أن العملية تمت قبل أذان الفجر بقليل، وأن الفاعل وجد الأبواب كلها مفتوحة فلم يكن محتاجاً لأى عنف.

جاء العمدة، ثم جاءت المباحث ومن ورائها النيابة عاينوا، رفعوا بصمات، حققوا مع أهل الدار وجيرانهم ثم انصرفوا كأن شيئاً لم يكن، فكان لابد للمسروقين أن يرفعوا قضيتهم إلى الدائرة الأعلى والأوثق من كل الدوائر الحكومية، الدائرة التى لا تخيب فى أنظارهم، لديهم يقين متوارث من أن اللجوء إلى هذه الدائرة فيه على الأقل ضمان لمعرفة اسم السارق حتى وإن احتفظوا به ولم يتخذوا ضده أى إجراء، تلك هى دائرة عمى الشيخ "بسيونى جردة" وخدمها عفاريت من الجن يخضعهم لسلطان الكلمة، التعزيم، الآمرة المستعينة بالله وبرسله وأنبيائه سعيا لعدالته سبحانه وتعالى وكشف اللثام عن الظالم الجانى.

أحيطت حركتهم بسرية شديدة، لم يشعر بها أحد سوانا نحن عيال الدار بعد صلاة العشاء نشاهد نساء ملثمات يدخلن قاعة الشيخ بسيونى، وقبل أن يجهز علينا الفضول يتضح لنا أنهن كحكاية وبناتها المتزوجات جئن كى يحلفن على المصحف الشريف بمعرفة الشيخ بأنهن لا شأن لهن من قريب أو بعيد بما حدث لأخيهن وعروسه بحلفانهن الذى أخذ هذه الصفة الشرعية الرسمية من شيخ حافظ يحق لهن أن يخرجهن الشيخ من دائرة الاتهام التى لن يعفى منها قريب أو حسيب أو نسيب. وفى ليلة تالية جاء عبد الجواد بأخيه الكبير المقيم فى عزبة مجاورة وبأخيه الأصغر المقيم معه فى الدار، أكد ثلاثتهم أنهم طاهرون من الرجس وخارجون لتوهم من صلاة العشاء، ثم حلفوا على المصحف الشريف، أصر عبد الجواد على أن يبدأ بالحلفان ليدرأ عن نفسه الشبهة من ناحية ويشجع أخويه على الحلفان من ناحية ثانية، وبهذا خرج ثلاثتهم من دائرة الاشتباه، بقى أهل الحارة كلهم وإنه لمن غير المعقول مطلقاً أن يستدعيهم أحد للحلفان لأنه ليس ثمة

من يجرؤ على اتهام أحد منهم من الباب للطاق دونما دليل أو حتى شبهة اشتباه.. هكذا قال الشيخ "بسيونى جردة" ثم استدرك وكأنه يسأل نفسه: "فماذا يكون الحل إذن يا إخواننا؟!"، ثم تلفت حواليه كأنه يكلم إخوانه الجن غير المرئيين إلا له وحده، مما جعل الرعب يتمشى فى وجوه القاعدين أمامه على مصطبة القاعة الجوانية، حيث لمبة الجاز نمرة خمسة الموضوعة فوق رف خشبى مدقوق فى الحائط تكافح الظلام بأنفاس لاهثة، القاعة من الأرض إلى السقف مدهونة بالهباب الأسود، أراها من خصاص الباب كسبورة المدرسة والضوء شخبطات بالطباشير الغامق البياض لا تستقر على حال، تأخذ أحياناً أشكال وجوه آدمية تميل على بعضها لتتهامس، وأحياناً أشكال حيوانات منبعجة الأفخاذ والظهور مفرطحة الرءوس والأكتاف، وأحياناً شكل أكوام السباخ المتكومة أمام دارنا، نسمع كل شىء ونفهم ما يدور، نكتم أنفاسنا اللاهثة المضطربة من فرط غرابة ما نسمع ونرى..

عرفنا أن عمى الشيخ "بسيونى جردة" سيفتح لهم المندل، ومن بين أشكال المندل الكثيرة من الفنجان إلى القلة اختار لهم مندل الطين باعتباره - فيما قال - مندلاً استدلاليا ناجعاً.. قال عبد الجواد: "كيف؟" نزع الشيخ ورقتين من قلب كراسة، طواهما ومزقهما إلى قصاصات صغيرة جدا كتلك التى توضع مع البونبون والطوفى ومطبوع عليها كلمات لطيفة وحكم وأمثال. رص القصاصات فوق بعضها، ثم نادانى، قال: "تعرف النشعة تحت زير الماء؟ اذهب وهات منها جالوصا من الطين إن لم تجد اعجن التراب فى النشعة وهاته بسرعة". جئت له بما طلب، قال: "ضعه فى القصعة فوق الرمل الساخن!".

وضعت فى جانب منها بعيداً عن النار الجاهزة دوما لامتصاص مطر من البخور قال لعبد الجواد وأمه: "قولوا لى أسماء من تشتبهون فيهم اسما اسما!". أطرقا برأسيهما قليلاً، راحت كحكاية وابنها يتبادلان إملاء الأسماء، والشيخ يكتب كل اسم فى قصاصة، ثم يطوى القصاصة فوق بعضها كحجاب فى حجم عقلة إصبع

طفل، ويقتطع من الطين بأطراف أصابعه قطعة، يدفن القصاصة فيها، يكورها كالبلية، يضمها فى تلامس مع النار على حواف القصعة، إلى أن انتهى من الأسماء كلها، فمال بجذعه إلى الوراء ماداً ذراعه على طوله، سحب صينية القلل القديمة من تحت الكنبة، نظفها بكم جلبابه، أمطر النار بالبخور، قرأ تعزيمة على الصينية، ثم دلق فيها كوزين من الماء النظيف، أضاف إليهما قطرة من زجاجة ماء الورد، مررها على سحائب البخور سبع مرات مصحوبات بقراءة عدية ياسين، وضعها على الأرض، نقل كرات الطين إليها، عدها الشيخ أربعين كرة، فتفاءل بالرقم خيراً، مما وشى بأن كحكاية وابنها قد أمليا أسماء الحارة كلها بمن فيهم من أطفال. صارت صينية القلل كحمام سباحة مصغر تطفو على سطحه عشرات الرءوس السوداء، خيل إلى أن رءوس أهل حارتنا كلهم قد قطعت وجىء بها إلى هذه المصيدة.

زفرت "كحكاية" وهى تفرك يدها فى حجرها ناظرة إليه فى ضراعة ليفك لها سر هذه العملية الغامضة التى حدثت، لكن عبد الجواد كان أكثر لهفة، سأله صراحة: "وإيش بعد اللى عملته ده يا شيخ بسيونى؟!".

حملق فيه الشيخ بسيونى بنظرة تفلق الحجر، خففها بابتسامة عريضة تهدلت من تحتها لحيته الرمادية المهيبة، قال منقلاً البصر بينهما، مشيراً بأصابعه إلى الصينية: "سأشتغل عليها بالتعزيم سبع ليال متتالية! إذا كان فى كرة من هذه الكرات اسم السارق فإن الكرة تنشق من تلقاء نفسها كالبرتقالة الفاسدة متخلية عن الورقة المطوية بداخلها! فتعوم الورقة على سطح الماء فنمسك بها نفتحها ونقرأ الاسم المدون فيها فنكون قد عرفنا الجانى بإذن الله!". شعرت أن شعر رأسى يطقطق، فى حين تجمدت كحكاية وابنها من الفزع.

بقينا جميعا فى صمت كثيف ضاغط كأن العفاريت قد حضرت بالفعل وبدأت فى اعتقالنا فى أماكننا. لكن الشيخ حين نادانى صرت فى الحال أمامه، أشار إلى ساتر الحمام فى ركن القاعة

المجاور للباب وهو عبارة عن نصف جدار مغفق بالأسمنت، قال: "ارفع هذه الصينية ضعها فوق ساتر الحمام وغطها بأى ماعون!"، إلا أن عبد الجواد خشى أن تقع منى فيدخل الشؤم فى السكة الماشية، فقام بنفسه ووضعها بحرص واطمأن إلى توازنها فى قعدتها ثم غطاها بلوح من الأبلكاش وجده فوق الساتر.

فى صبيحة اليوم التالى كنت أول من تسلل - وعمى مستغرق فى النوم - فكشفت الغطاء فوجدت الكريات الطينية السوداء غاطسة تحت الماء لم يحدث لأى منها أى تغيير. بعد يومين كان الخبر قد أصبح معروفا. نسوان حارتنا يدخلون دارنا فى اليوم الواحد عشرات المرات، ففى دارنا دويرة للخبيز يشتعل الفرن فيها كل يوم، وحين يتجمعن أمام الفرن لمساعدة بعضهن البعض فى الخبيز فيندمجن فى تقريص وتبطيط وإحماء، كن يتجنبن الخوض فى موضوع السرقة حتى لا تغلط الواحدة منهن بكلمة خائبة قد تجر عليها وعلى أهلها وجع دماغ لا ينتهى.. إلا صباح زوج الباشتمرجى الذى يسكن فى دار الغرابلى فى وسط حارتنا تقريبا، هى امرأة نصف بندرية من بلدة من ضواحى مدينة طنطا، خفيفة الظل، جميلة رشيقة القوام فارعة، طيبة، يحبها الجميع ويعاملونها برقة وعطف باعتبارها غريبة والغريب مكروم لأجل النبى، لا يبدو عليها التقدم فى العمر أبدا، دائما محتفظة بنضارتها بشكل يوغر صدور الرجال ضد زوجاتهم، تتميز بالجرأة والأريحية والوجه المكشوف، تساعد زوجها على المعايش بضرب الحقن، والتغيير على الجروح، وإسعاف من يصيبه صداع أو مغص أو نزلة برد، وتكون أول من يحضر إذا علمت أن امرأة من نسوان الحارة تلد، كانت صباح هى الوحيدة المهمومة بأمر السرقة، تستنزل اللعنات على من فعلها وتطلب فضحه وكسر رقبته جزاء ما فعله بهذه العروس الغلبانة، أكثر من مرة اقتحمت على الشيخ بسيونى خلوته تدعو له أن يوفقه الله فى مسعاه الطيب، تلف وتدور بصنعة لطافة تستدرجه من خلال المرح لعلها تعرف منه شيئًا عن خبر السارق يشفى غليلها، ولكن الشيخ بسيونى يغلوش عليها ويهرب من جمالها المبذول إلى

التسبيح والاستغفار، إلا أنها ضبطته مرة وهو يكشف الغطاء عن الصينية ويتأمل فى الكريات الطينية، فبدا عليها الارتياع من هذه اللعبة الغامضة، لحقت بى فى الدهاليز، أقعت أمامى أخذتنى فى حضنها، سألتنى إن كنت أعرف ما سر هذه الكريات الطينية السوداء العائمة فى صينية القلل.. فاندفعت بلذة فائقة أحكى لها كل شىء بالتفصيل، وقلت لها إن أسماء أهل الحارة كلهم فى قلب الكريات فإذا كان السارق منهم فإن كرته سوف تنشق وتخرج الورقة من قلبها فيقرؤها عمى الشيخ بسيونى فيعرف منها اسم السارق.. لحظتها اتسعت عيناها كسردابين مخيفين، ثم أفلتتنى، هرولت أنا إلى بوابة الدار بحثا عن العيال لأحكى لهم ما حدث، لكننى تذكرت تهديدات عمى فندمت واغتظت من صباح فرجعت أبحث عنها لأقول لها: "هيه وضحكت عليكى!"، فلم أجدها، إنما لمحت طرف ثوبها بارزا من خلال باب قاعة الشيخ الموارب. دفعت الباب ودخلت، لأفاجأ بها وهى بالكاد ترفع الغطاء عن الصينية ثم تمد أطراف أصابعها لتعبث بالكريات، شددتها من جلبابها، ربتت على كتفى بيد مبللة مرتعشة ثم خرجت، طلعت فوق المصطبة ونظرت فى الصينية فوجدت إحدى الكريات مفعوصة والورقة المطوية عائمة، فأيقنت بأنها هى التى فعصتها لسبب كاد غموضه يبكينى، غير أننى من شدة الخوف تكتمت ما حدث كأنه لم يحدث. تلك كانت الليلة السابعة والأخيرة، بعد صلاة العشاء صرخنا جميعا صرخة مكتومة حينما قرأ عمى اسم الورقة العائمة: صباح!

ذلك كان لغزا من أعقد ألغاز طفولتى، كيف بحق الله أن تمد صباح يدها بشكل عشوائى لتفعص إحدى الكريات فإذا بهذه الكرية بالذات هى التى كانت تحمل اسمها؟! غير أن ذهولى أمام هذا التوافق المستحيل تضاءل تماما أمام الذهول الأكبر، يوم بادر عبد الجواد بإبلاغ المباحث بشكوكه فى شخصية صباح فتم القبض عليها فإذا هى لا تصمد أمام النيابة لبضع دقائق فتعترف بجريمتها بالتفصيل، وتضيف إلى أساطير وأدبيات بلدتنا العتيقة أم العجائب أعجوبة هيهات أن تفهمها العقول، أو تنكرها.

وكان متخفيا فى الشجر حينما شاهدها مثل موكب من الضوء تقترب من الشرفة فى ثوب منزلى رهيف مكشوف الصدر والظهر والكتفين والذراعين، آه يابنت الفرطوس، حقاً! المال والعز والصحة لا تزال شابة فتية.

شفاء الغل!

١

وهو خارج من بوابة سجن القلعة صده الضوء فأرغمه على التراجع برأسه مغمضا عينيه ثم أحنى رأسه وعبر العتبة إلى الخلاء. لم يكن ثمة من أحد فى انتظاره، صار يتلفت حواليه يدقق النظر فى كل الوجوه التى تلتقيه فى الشارع لعله يتعرف على أحد أو يتعرف أحد عليه. سقطت من حنكه ضحكة كفتات الخبز الناشف: ومن ذا الذى سيتعرف عليك يا شعبان يا قرد بعد أن بهتت ملامحك،! إن ابنتك - وهى كل ما لك فى هذه الدنيا - لن تتعرف عليك، فيوم تركتها وهى فى الثالثة من عمرها كانت سنك وقتها عشرين عاما وكنت ولدا حليوة شعرك مسبسب تركب الموتوسيكل الهارلى توزع به الصنف على زبائنك المحترمين الآخر نقاوة! أما الآن فقد تجاوزت الأربعين وشالت ملامحك حمولات من القشف وغبار حجارة أبى زعبل! حتى سجن القلعة الذى جىء بك إليه قبل الإفراج بشهرين لم تجد فيه من يخدمك بتوصيل الخبر إلى ابنتك لعلها تضع فى عينيها حصوة ملح وتأتى لملاقاتك!

على كل حال هو الآن فى حيه، فى مسقط رأسه ومرتع صباه وشبابه، مع ذلك يبدو حى الصليبية كأنه جديد عليه، الدنيا كلها تغيرت وليس هو وحده، أبدا لم يكن هذا الشارع ينتهى بكوبرى عند السيدة عائشة، ما كل هذا الزحام؟ هل قامت القيامة؟! الرعب يطارده وهو

ينسـرب بين أرتال السـيارات كأنـه البـهلوان لـيفوت من تحـت الكوبرى واصـلا إلى قـهـوته القـديمـة فـوق تلة عـاليـة كـان يحب الجلوس على رصيفها المرتفـع يستمتع بالعصارى مع صحابه من أبناء حى الإمام الشـافـعى. فى هذا الحى ولد لأب تربى وأم تطاهر الفتـيـات، وفـيـه دفنت أمـه ومن ورائها أبوه وفيه داهمته الشرطة فى ليلة سوداء: أبوه التربى كان يخزن الحشيش للمهربين داخل فسقيات المقابر الواقعة تحت إشرافه، وتلك عملية تكفيه لأن يعيش مبسوطا إلا أن شعبان كان طموحاً يتطلع إلى شقة فى عمارة حديثة فخمة وسيارة مرسيدس وثلاجـات وتليـفـزيونات ومـصـايف مـثلمـا يرى على تجـار الصنف المشـهورين، وهكذا ترك مـهمـة التـخـزين لأبيـه وانشـغل هو فى البـيع والتوزيع ولكن بطريقة مبتكرة ونظيفة: كون دائرة من الزبائن الذين لا تسمح لهم مراكزهم بدخول أوكار بيع الحشيش، يعرفونه ببعضهم، يذهب إليهم بالبضاعة لحد عندهم فى أكياس فاكهة أو علب حلوى. جرت الفلوس فى يديه بغزارة، تزوج، اشترى شقة لا بأس بها فى بيت عتيق بحى الإمام، سرعان ما حملت زوجته حمدية المزين وأنجبت بنتا تفاءل بها فسماها أم السعد، فعلى قدومها اشترى الموتوسيكل الهارلى. بفضل تودكه وشطارته ربح الثلاثة هو والمهرب والخازن، ومن شدة حبه لحمدية المزين جعل منها أمينا للصندوق، كل ما يكسبه موضوع تحت يدها تعرف كيف تخفيه بعيدا عن نطاق تفتيش البوليس وأعين الحاسدين، حتى فلوس أبيه بعد موت أمه باتت تحت يدها، وكانت هى مصدر ثقة منهما ولكن "جز على أنيابه فى غضب وعصر كوب الشاى فى قبضته حتى كاد يفتته" لقد كان مغفلا بمعنى الكلمة: كيف نسى أن حمدية المزين كانت تعيش قصة حب مشبوب مع العربجى سمير السنى الذى باع الكارو بحصانها واشترى نصف نقل بالتقسيط يلقط بها رزقه فى الأسواق؟! كيف من فرحته بموافقة المزين على تزويجه من ابنته اندب كالرطل ومشى فى الموضوع رافضا تصديق الشائعات بأن سمير السنى أخذ غرضه منها وتخلى عنها؟ كيف صدق أن حامد المزين اللئيم الخنيس رفض تزويجها من السنى لأنه لا يملك مهرها ولا يقدر على شراء شقة لها؟ الواقع أن سمير السنى فعلاً لم يكن

يملك شيئا ولا يستطيع مغادرة الحوش الذى يسكنه أباً عن جد حيث يضم الحوش مقبرة واحد ممن قرأ أسماءهم فى كتاب المطالعة فى المدرسة الابتدائية قبل أن يزوغ منها نهائيا، وصحيح أنه حوش أشبه بالقصر لكنه فى النهاية تربة، وشكله معفن، عليه ريبة وكآبة فى الظهيرة فما بالك فى الليل؟ وفعلا لم يكن لحمدية أجمل بنات حى الإمام أن تدخل عروسا فيه فكلام حامد المزين أيامها كان يؤكده الواقع، حمدية هى الأخرى أكدت له أن قصة حبها لسمير السنى لم تكن سوى شائعة، هو وحده المسئول عن نشرها بين العربجية وما يذاع فى موقف العربجية تحمله العجلات إلى الأسواق، وقد صدقها وائتمنها على حياته بعد أن أنجبت له ابنته التى استبشر بها وأحبها إلى أن جاءت تلك الليلة السوداء الحالكة: كانت المآذن على وشك أن تكبر لصلاة الفجر، وثلاثتهم: هو والمهرب وأبوه فى داخل فسقية المقبرة فى لحظة استلام بضاعة وتستيفها فى صفائح وكراتين معتمدين على التحسس والتلامس فى ظلام دامس، وإذا بشبح فاتح السواد قليلا ينحنى على فوهة المقبرة من فوق وينادى بهمس كالفحيح: "شعبان.. شعبان يا قرد" ارتجفت قلوبهم وضع شعبان يده على خنجره المخبوء تحت إبطه وسحب المهرب طبنجته وراح أبوه يحفر الأرض بيديه ليسحب البندقية العتيقة، صعد شعبان درجتين على السلم الحديدى فتعرف على قميص الأسطى سمير السنى ولحيته السنية القصيرة وشاربه المنكفئ داخل شفتيه بشكل مقرف: "مالك يا زفت الطين إنت عايز منى إيه! وإيه اللى عرفك إنى هنا أصلا؟!" الفاجر الباجس قال: "شفتك بالصدفة وانت جاى هنا جيت أنبهك إن البوليس موجود فى المنطقة فخلى بالك" من غيظه شيع له بونية قوية عوجت ضبته "وإنت مال ديك أمك؟" وقف يتألم من الضربة "خير تعمل شر تلقى" مشى مهرولا حتى اختفى، فكر شعبان فى إغلاق المقبرة بالمجاديل للتمويه مؤقتا، لكن الدنيا ارتجت حواليه فجأة بمدافع رشاشة وكشافات وعسكر وضابط يصيح آمرا "خليك مطرحك" إلا أن شعبان قد ظهر بكامله رافعا ذراعيه علامة التسليم، فتشوه ثم كلبشوه ودفعوا به إلى البوكس فورد الراكن فى المنحنى

الجانبى، أبوه والمهرب لم يستجيبا لأوامر الضابط ولم ينصتا لتهديده بأنه سوف يضرب فى المليان فأطلق بضع رصاصات فى فوهة المقبرة، فأتته من الفسقية رصاصة عشوائية اخترقت كتفه اليسرى فارتمى على الأرض فانهال رصاص المدافع على المقبرة من كل ناحية، جاوبتها رصاصات من داخل الفسقية أصابت جنديين، فلما كف الرصاص نزلوا بالكشافات إلى الفسقية ليجدوا جثتى الأب والمهرب وبجوارهما صفقة حشيش وأفيون ضخمة.. وإذن فالأسطى سمير السنى لم يكن إلا مرشداً خسيسا، هذا ما تأكد منه شعبان القرد وهو فى قلب المحنة.. حكمت المحكمة على شعبان القرد بالأشغال الشاقة المؤبدة.. فى السجن أوعز إليه المجربون المخريشون بأن زوجه حمدية هى أس البلاء ومدبرة الخيانة من أساسها ما فى ذلك شك.. بعد صدور الحكم بأشهر قليلة تقدمت حمدية المزين بطلب رسمى للتعجيل بالطلاق بناء على حكم المحكمة، فحصلت عليه طبعا الخسيسة بنت الخسيس نالت كل أغراضها وها هى ذى تنعم فى خيره مع حبيبها القديم.. دلق الشاى فى جوفه، دمدم ولكن لا! لا نعيم لهما بعد اليوم.

سخن دمه إلى حد الفوران، فالكل هنا لا يعرفه بل لا يريد أن يعرفه، رجال عجائز كثار دخلوا عليه واستطاع أن يتعرف عليهم ولكنه أمسك نفسه حتى يرى إن كان أحدهم سيتذكره أم لا، غير أن الواحد منهم يحملق فيه مأخوذا لبرهة، أو متشككا أو متصنعاً عدم المفاجأة بعضهم كان يكاد وجهه يتهلل هاتفا: شعبان القرد إلا أنه ما يلبث حتى يغير وجهه وسكته. ضجر وغضب، تحسس تحويشة عمره فى ورشة السجن التى تعلم فيها صنعة لم يفلح فى تعلمها وهو طفل: نجارة الكراسى. وقف، حاسب الجرسون ومشى يقاوم الرغبة فى البكاء: على الدرج التقاه صاحب المقهى فراح يتطلع إليه فى فضول يشوبه توجس مرعوش، لقد طعن فى السن ولم تعد صحته تحتمل المفاجآت غير السارة تبسم شعبان "مش فاكرنى يا سعداوى" تفككت ملامح الرجل واضطربت، هتف بفرحة تلقائية "شعبان القرد؟ ما حدش عمره قال لى يا سعداوى غيره"، ثم استدرك ضابطا ملامحه مستردا أنفاسه، أحاط شعبان بذراعه يدفع به إلى الصعود "حمد الله على

السلامة يا قرد اطلع اشرب شاى". قال شعبان فى سأم "عايز أروح أنام لى ساعتين" انفتح الحنك الأهتم الشبيه بحنك ديناصور تعيس "تروح فين؟! إطلع إطلع"، فطلع شعبان متوجسا مشتاقاً لسماع الأخبار حتى وإن كانت مصائب سوداء فماذا يكون أسود مما هو فيه الآن؟ لكن سعداوى دمر البقية الباقية من روحه المعنوية بغير رحمة ربما دون أن يقصد، فمع الشاى الذى جرعه، وبوسة الأفيون التى خرجت معه من السجن فاقتسمها معه، تجرع بحرا من المرارة: حمدية المزين باعت الشقة التى هى من حقها باعتبارها حاضنة، وطبعا تزوجت من سمير السنى، سمير العريجى أصبح الآن صاحب أسطول من سيارات النقل، وعضوا بمجلس الشعب يسكن فى قصر بحديقة بناه فى جبل المقطم، ورغم أنه مزواج وكل يوم والثانى له سكرتيرة جديدة يتزوجها ثم يطلقها بقرشين أو بشقة أو بسيارة فإن حمدية المزين لم تفرط فى جمالها بل زادها العز والفخفخة صحة وشبابا وجمالا، وأنها كثيرا ما تزور المنطقة لتصلى فى الإمام الشافعى مرة وفى السيدة عائشة مرة وهكذا فى السيدة نفيسة والسيدة زينب والحسين، وأن سمير السنى لم ينجب إذ إن حيواناته المنوية بعيد عنك ميتة، لكنه استعاض عن الخلفة بإخوته السبعة الذين يرتعون فى معيته ويمسكون بمفاتيح كل شىء. سكت المعلم سعداوى بعد إذ لم يعد لديه ما يستحق أن يحكيه لشعبان القرد، إلا أنه برهة نظر إليه فى دهشة مستدركا "ما سألتنيش يعنى عن بنتك أم السعد" هتف شعبان فى ضراعة "الحقنى الله لا يسيئك قول كل اللى تعرفه عنها" قال سعداوى "كل خير أم السعد وهى فعلا أم السعد دى يا سيدى اتجوزت وهى صغيرة واحد من دبى غنى جدا وعايشة هناك معاه! ومخلفة صبيان وبنات ربنا يخلى" عندئذ بكى شعبان، تركه سعداوى يزيح عن صدره جبال الدموع، فى النهاية أخذ شعبان وصفة العنوان رسمها فى دماغه بدقة خرج إلى الشارع هائماً لا يدرى أين يذهب.

٢

ثلاثة أشهر أمضاها متجولا يبحث عن مكان يبيت فيه من لوكاندات السيدة زينب وكلوت بك إلى المقاهى الساهرة للصباح إلى

دكك فى حدائق عامة. نفدت فلوسه. كل تجار المخدرات الذين زارهم تهربوا من لقائه بنصيحة مسمومة ينقلها إليه رجالهم "اتدارى شويه" صغارهم كانوا يعطفون عليه، بمائة جنيه، بجلباب جديد، بحذاء ، قطعة أفيون، حجرين حشيش، واضعين فى اعتبارهم أنه قد يسترزق منها لكنه سئم، تمنى لو يعود إلى السجن من جديد، إن الحياة خارجه لم تعد تلائمه، ليس من مكان يرحب به ويطمئن إليه سوى قهوة سعداوى، فيها يكون قريباً من جبل المقطم لعله يرى حمدية المزين فى إحدى زياراتها للإمام، يسرح خياله فى كيفية الوصول إليها والتفاهم معها حول أمواله وأموال أبيه التى فى ذمتها، إنه لا شأن له بسمير السنى، لقد أصبح الآن يخشاه بعد إذ أصبح قوياً بماله ومجلس شعبه وإخوته وعماله، إنهم يمكن أن يدفنوه حيا.. ولكن ماذا يكون الأمر لو أن حمدية المزين أنكرت أن له فى ذمتها أموالا؟ أقل ما يمكن أن تقوله إنها قد ربت له ابنته بأضعاف ما تركه من مال، وهل كان ماله سيبقى إلى اليوم وهناك ابنة من صلبه يلزمها أكل وشرب وكسوة وعلاج ومصاريف مدارس طوال خمسة وعشرين عاما؟ شعر بإحباط شديد، إلا أنه لم يسلم بالهزيمة إنما جعل يفكر فى دخلة ودية، ولكن كيف وبواسطة من؟ كان قد اعتاد التسكع حول القصر حتى درسه من جميع اتجاهاته بحيل وألاعيب تعلمها من السجن، عرف كيف يتودد إلى البواب ويصادقه، واكتشف نقطة ضعفه.. إنها الأفيونة التى تعينه على السهر وتبث فيه النشاط، من حسن حظه أن عمران البواب كان وحيدا، ترك عياله لمدارسهم فى سوهاج وأقام بمفرده هنا. كل ما كان يصل إلى يد شعبان القرد من نفحات الأفيون والحشيش كان يقتسمها مع عمران البواب حتى قام الأنس بينهما فى عصريات كثيرة فى حجرته المنزوية فى دروة بحذاء البوابة، يأكل شعبان وينام إذا أراد، فى المقابل لا بأس من مساعدته فى شغله، يذهب عمران إلى مشاوير أسياده فيمسك شعبان القرد بالخرطوم ويسقى الزرع أو يقلم الأشجار بالمقص، كل ذلك وهو يتحين الفرص لرؤية حمدية المزين أو حمدية هانم كما يصفها عمران.

كان مضغوط الأعصاب بسبب تنكره فى عمامة صعيدية واسم

مستعار، وكانت الكآبة تقبض على صدره تعصره بقسوة وهو يرى هذا النعيم الذى تعيشه حمدية فى مقابل الشقاء الذى عاشه، يشعر أنه كلما اقترب من مكانها ابتعدت عنه أكثر حتى صارت كالأمل المستحيل، وكلما يئس من رؤيتها أكله الحقد عليها بضراوة.. إلى أن رآها فجأة دونما توقع. كان متخفيا فى الشجر حينما شاهدها مثل موكب من الضوء تقترب من الشرفة فى ثوب منزلى رهيف مكشوف الصدر والظهر والكتفين والذراعين، آه يابنت الفرطوس، حقاً! المال والعز والصحة لا تزال شابة فتية: نفس الوجه لم يتغير إلا إلى الأحسن! نفس الذراعين والكتفين وحردة الخصر والمؤخرة الدائرية المقببة.

ارتكنت بكوعيها على حافة الشرفة راحت تنظر نحوه فى استرابة، ثم صاحت "مين اللى واقف هناك"؟ نفس صوتها الحاد، صاحت "عمران"، فلم يرد أحد فهتفت بغضب "إنت يا حيوان ياللى هناك" استدارت، اختفت فى الداخل، فبسرعة انتقل شعبان زحف تحت امتداد اللبلاب الكثيف المتلفلف حول أسلاك السور رآها عائدة وقد طرحت على كتفيها شالا، جاءت إلى الشجر، وقفت حيث كان يقف وكانت شمس الأصيل قد انفقشت فوق رأسها فصبغت وجهها بالدم وعطلت عينيها عن الرؤية، لكنها راحت تردد "عجايب ده انت حرامى فعلا" ثم هتفت في فزع: "يا زفت الطين يا عمران" فما درت إلا وشعبان القرد قد نط من تحت اللبلاب وانقض عليها بالمطواة، طعنها فى بطنها، فى قلبها، فى رقبتها، فى كتفيها. كانت عمامته قد شبكت فى السلك فانفكت وظهر وجهه الحقيقى، وكانت صرخات القتيلة قد رجت الدنيا كلها فى الحال امتلأت الحديقة برجال ونساء وأطفال، برزت من بينهم امرأة فى الخمسينيات من عمرها لا تزال مشدودة الحيل، كانت تلطم خديها، فيما الجميع فى ذهول، تقدمت من شعبان الواقف ممسكا بالسكين مبرقشاً بالدم. اتسعت عيناها وهى تحملق فى وجهه، صرخت من قلبها المشروخ "شعبان؟ شعبان القرد؟ قتلت بنتك يا حيوان؟!" حاولت أن تطبق فى خناقه لكنها وقعت مغشيا عليها.. عندئذ تهاوى شعبان كالجدار بجوارها والسكين مغروس فى قلبه.

”باظ الولد فى المدرسة المصرية، فألحقه أبوه بالأجنبية، فباظت الأجنبية، عجزت عن كسر غروره وبلطجته فضلا عن غبائه وتبلده، كان لا يفعل أى شىء فى حياته، فكل شىء هناك من يفعله له حتى لبس الهدوم وخلعها حتى غسل وجهه وتسريح شعره.“

حدوتة قديمة

يحكى أنه فى سالف العصر والأوان كان يوجد فى مصر المحروسة تاجر من مساتير الناس كانت له قصة كفاح فى غاية العجب لو كتبت بماء الذهب على آماق البصر لكانت عبرة لمن اعتبر، جمع ثروته الكبيرة من كده وعرقه وأسفاره الطويلة إلى الأسواق فى أقرب البلدان وأبعدها، فى البداية كان يحمل خرجا على كتفه يضع فى جرابيه المتقابلين كل بضاعته من أصناف العطارة، يلف بها شوارع الضواحى والقرى المجاورة ينادى بصوت منغوم ممراح: "معايا الشطة والكمون والفكك والفكوك والقرفة والينسون والكزبرة والخلنجان والزعتر واللبان وعين العفريت والشبة والفسوخ لطرد الجان والحنة الحجازى يا عرايسنا العزازى! ببركة السيدة والحسين والإمام وآل بيت النبى الكرام!" الناس فى جميع القرى والأحياء ينجذبون إلى ندائه بنبرته الطروب المرحة التى تضفى على أصناف بضاعته فخامة تغرى الناس بالإقبال على شرائها لمجرد استكشاف كنهها أما النساء فى كل مكان، وبخاصة فى القرى فإنهن ينتظرنه بشغف وقد يسألن بعضهن بعضا عنه إذا طالت غيبته، فما أن يسمعن صوت ندائه الحميم تتردد أصداؤه فى الحوارى المجاورة حتى تنتبه كل واحدة فتروح بسرعة تراجع العطارة الناقصة فى بيتها وبخاصة الفلفل الأسود والكمون والشطة والبهارات بأنواعها ثم العطارة الطبية كالتوتياء والسلمكة والتليو وغير ذلك.

الشـــراء آنذاك ليس شــرطاً أن يتم مـقـابل فلوس، إذ ليس فى أيدى الفـلاحـين وفـقـراء الحـضـر فلوس طوال الوقت اللهم إلا فى مواسم الحصـاد والعمل، عم بيومى مثله مثل جميع الباعة الجائلين فى القرى وحوارى المدن الصغيرة يبيع بالمقايضة، بعدة كيزان من الذرة، عدة بيضـات، حفنة قمح، كوبة ملآنة بالأرز الأبيض، طاجن لبن، أحيانا بضعة أرغفة وعدة خرطات من الجبن القريش أو ملء عيـار من الزبد أو السـمن البلدى، كله مـاشى، يتـربع أو يقعى أمام الدار حيث تقعى أمامه الزبونة، يفتح أحقـاقا وعلبا من الصفيح وقنينات من الزجاج وأكياساً من قماش، يأخذ من هذه أو من تلك المقـدار الذى يريد بأطراف أصـابعـه إن كان الصنف خـرزا أو كتلة يقتطع منهـا، فإن كـان الصنف مسحوقا أو سفوفا اغتـرف منه بمغـراف صـغير حيث لكل صنف مغـرافه الخـاص به داخل صـرته الخـاصـة، يضع المقـدار المطلوب فى ورقة من كراسـة قديمة أو من ورق الجـرائد ويلف الورقـة بصنعـة وحـرفنة حـيث تتـدرج أطرافهـا المطوية فوق بعضها فتتداخل فى بعضها بإحكام، ولكن لا يكتفى بذلك بل يسـحب بكرة الخـيط، أو الدوبارة حـسب حـجم اللفـة، ويطوق اللفة بالخيط من جميع الجهات يكسكر عليها بعـقدة أو عقدتين ثم يقطع الخيط.

لفة العطار ماركة مسجلة معروفة للجميع بمنظرها الحريف فى الكسكرة الخيطية إن رآها أحد صدق فى الحال أن هذا الصنف أو ذاك اشترى من العطار لا من أحد آخر، يعود عم بيومى آخر اليوم - شأن كل بائع سريح - وقد تخفف من خرج البضاعة لكنه راح ينوء تحت نقل خرج الغلة التى باع بها بضاعته، ولسوف يبيع ما تجمع منها لتجار الحبوب ويحتفظ بما يحتاجه بيته من غموس وإدام وخبز.

لكل مـجتـهد نصيب ما فى ذلك شك.. بعـد حمل الخـرج على الكتف أصبح عند عم بيومى حمار عفى رهوان استطاع بفضله أن يعود للمبيت فى حضن زوجه مهما ابتعد، ساعده الحمار على

المرواح إلى أسواق البلدان البعيدة حتى ولو اضطره ذلك إلى المبيت ليلة أو بعض ليلة فى بلدة السوق، رواج الأسواق طور حماره إلى بغلة، ثم أصبحت البغلة قافلة صغيرة لكنها متخمة بالبضائع يتعيش من ورائها سيّاس وعمال بيع وحمالون وحراس ولأنه رجل أمين غير جشع ويعرف الله ويتقيه فى بيعه وشرائه ومودته مع الناس كبيرهم وصغيرهم فإن الله قد بارك له فى تعبه وشقائه فافتتح محلا فى حى الحمزاوى يقع على ناصيتين مهمتين: الغورية وشارع الأزهر، وله إلى ذلك أربعة أبواب وبدروم تحت الأرض بحجم العمارة جاءه على الطبطاب كمخزن للبضائع، وأصبح عم بيومى يسافر بنفسه إلى الهند والباكستان والخليج العربى لشراء البضائع النادرة التى عرف أسماءها من كتب قديمة كان يقرأها منذ أن غوى هذه المهنة المليئة بالعلم والحكمة وبفضلها عاش فى نعيم عوضه عن سنوات الشقاء، وحج مع زوجه إلى بيت الله عدة مرات.

شىء واحد بات يقلق راحة الحاج بيومى وزوجه ذلك أن الله الذى أعطاه كل هذا النعيم ضن عليه بالخلفة سنوات الشباب كلها ثم صالحه على كبر بعد التقدم الطبى فرزقه بولد بات قرة عينه، يسقيه الشهد بملعقة ذهبية، يملأ حياته باللعب والهدايا الثمينة، كل شىء جميل يصادفه فى الحياة يشتريه له، حتى نشأ الولد رخوا كالأنثى، اعتاد الرفاهية الزائدة عن الحد، بات يشعر بتميزه الصارخ بين جميع أقرانه فى حى الحلمية الجديدة الذى كان من حظه أن ولد بين ربوعه منذ أن ودع أبوه مرحلة الشقاء وانتقل من حى الحنفى إلى الجمالية، ومنها إلى الحلمية الجديدة فى بيت محندق بحديقة محندقة بناه وفى مخططه أن ينعم به ابنه مستقبلا.

باظ الولد فى المدرسة المصرية، فألحقه أبوه بالأجنبية، فباظت الأجنبية، عجزت عن كسر غروره وبلطجته فضلا عن غبائه وتبلده، كان لا يفعل أى شىء فى حياته، فكل شىء هناك من يفعله له حتى لبس الهدوم وخلعها حتى غسل وجهه وتسريح شعره، فلما طردته

المدارس جيء له بالمدرسين فى البيت من كل التخصصات لعله يفلح فى الحصول ولو على بكالوريا أو حتى الابتدائية ليكون إنسانا صالحا لإدارة حياته على الأقل، ولكن عبثا ضاعت كل الدروس، كان يستدرج المدرسين إلى العبث والتهريج ويغدق عليهم من نعيم البيت حتى وجدوا أن ساعات دروسهم أوقات من المرح مدفوعة الأجر فأخذوا الولد على هواه إلى أن تجاوز عدد مرات الرسوب فانصرفوا عنه وانصرف هو عن كابوس الدراسة، بقى فحلا غبيا كالحلوف يحتاج لنهر من الفلوس ينفقها على نزواته التافهة الخرقاء، كل يوم والثانى عامل مشكلة، مع الخادمة، مع الغسالة، مع بنت الجيران، مع واحدة ماشية فى حالها، كل يوم والثانى رايح السينما جاى من السينما، الحاج بيومى لم يحتمل ميلة البخت هذه، جاءه مرض السكر، لكنه وهو الرجل القوى المكافح كان يتحسر على مستقبل ثروته، فإذا كان وريثه الوحيد معتوها يبعثر فيها وهو بعد لم يتعد الخمسة عشر عاما من عمره فماذا سيفعل حينما يصير رجلا تلعب بعقله الخمر والنساء؟! القوى قوى والكبير كبير ولو على حساب مشاعره وقلبه بل وفلذة كبده، لقد استخار ربه واستفتى قلبه عقب صلاة الفجر، فاقتنع بأن هذا الولد هو عمله السيئ الذى لابد أن يكون ارتكبه ذات يون دون أن يدرى، وهكذا تقبل قدره ونصيبه، قرر أن يعمل بكل وسيلة قانونية لحماية ثروته من جنونه وعبثه ووقفها على مشاريع خيرية تتولاها وزارة الأوقاف، قرر كذلك - من باب إبراء الذمة - أن يكون شديد القسوة فى تأديب هذا الولد، سيؤدبه بقوة وإصرار سنوات الشقاء التى جالها فى الشوارع والقرى بالخرج فوق كتفيه كحمار السباخ، لن يمكنه من مليم واحد من ثروته التى يثق تمام الثقة أنها حلال فى حلال، إن ثقته فى شرف ثروته ونظافتها أقوى من ثقته فى أن يكون هذا الولد من صلبه فعلا برغم يقينه من شرف زوجه، فإن كان فى صلبه بذرة من حرام أنبتت جنين هذا الولد فسوف يسحقها إن عجز عن تقويم اعوجاجها.

فى صبيحة ذلك اليوم ناداه قبل خروجه إلى المتجر، دفعه برفق خارج باب البيت، بهدوء شديد قال له: "يا ولد لقد ربيتك فلم تثمر فيك تربيتى، وأنا لا أحب الفسدة فى بيتى لقد آن الأوان لتعتمد على نفسك، هذا البيت لا مكان لك فيه بعد اليوم"، ثم نادى زوجه فجاءت تجرى، فزأر فيها: "يا امرأة أنت طالق ثلاثا إن فتحت الباب لهذا الولد أو أعطيته نقودا أو ملابس"، ما كادت تفتح فمها بصيحة استنكار حتى رفع ذراعه وهوى بها فوق صدغها بحقد نفس فيه عن اعتقاده بأنها المسئولة عن تدليل هذا الولد وإفساده، الولية داخت، وقعت على العتبة، لم يعبأ بها، الولد ارتعب إذ يرى أمامه وحشا ضاريا لا يمت للحاج بيومى بصلة، فى اللحظة التى قرر فيها الجرى من أمامه كانت ذراع أبيه قد غافلته وهوت فوق صدغه بصفعة مدوية جعلته يلف حول نفسه ثم يجرى مغادرا الحى بأكمله. طوال عدة أسابيع كان الحاج بيومى يعرف من طرف خفى أن الولية تتصل بابنها وتمده بالفلوس وبالثياب فى بيت خالتها فى حى النبوية، فتجاهل الأمر على أن الولية ساقت عليه بعض الأعزاء على نفسه، رضى الحاج أن يعود الولد بشرط أن يأكل من كده ولا يأخذ مصروفا، امتثل الولد للشرط ووعد بأنه سيشتغل أى شغل وسيسلم لأبيه أجرته كل يوم.

الحاج رجل عقر وداير، قال فى نفسه لعل وعسى مع أنه فى دخيلة نفسه كان يتوقع ماذا يمكن أن يحدث، فى مساء اليوم التالى للاتفاق دخل عليه وهو جالس على الكنبة فى غرفة المعيشة يختم صلاة العشاء سلام عليكم يا حاج أهلا يا ولدى، جلس الولد، لم يكن يبدو عليه أى قدر من الإجهاد بل كان الدم يجرى فى بشرته، هدومه نظيفة مكوية، إيش الحال؟ قال الولد: "اشتغلت كاتبا فى فرن وهذه هى أجرتى"، وضع فى يد أبيه بريزة فضية قدرها عشرة قروش. أيقن الحاج أن أم الولد أعطته هذه البريزة فوق مصروفه اليومى فراح يتصرمح على المقاهى ثم جاء ليختمه على قفاه بهذه البريزة، فما كان من الحاج إلا أن نظر فى البريزة ثم رفع ذراعه

نحو الشباك وطوحها فى الهواء إلى الشارع، ذهل الولد لكنه مشى دون تعليق، فى المساء الثالث والرابع والعاشر تكرر نفس المشهد بحذافيره، فطنت الأم فأوعزت لولدها أن يتعب نفسه ويتبهدل ليقتنع أبوه بأنه اشتغل بالفعل، فكان الولد يظل طول النهار يلعب الكرة حتى برطش حذاءه ومزق ملابسه وكان يعطى لأبيه البريزة وهو يتصبب عرقا، فيفاجأ بأنه كالعادة يلقى بها من الشباك إلى الشارع فيمضى كاسف البال، وذات صباح استيقظ بسلامته من النوم فى الضحى يتحسس تحت المخدة فلم يجد مصروفا فهرع إلى أمه وجدها مقعية تحت سريرها تبكى بحرقة، صرخت فى وجهه: "خلاص لم يعد فى جثتى لحم تأكله بعت كل ما أملك! ابحث لنفسك عن حل! كن رجلا! الله يلعن خلفتك السوداء!"، خرج هائما على وجهه قادته قدماه إلى المقهى البعيد من أول وهلة أدرك القهوجى أنه ممحون، نظرة فى كلمة فى حدوتة، كسرة خبز فى واحد شاى سيجارة، أراد الولد أن يستذوق فى المقابل، صار يساعد فى شغل المقهى، فوجئ بأنه أحب هذا العمل السهل المربح، فى اليوم الخامس من مبيته فى المقهى فوجئ. كما فوجئ صاحب المقهى. بأن الزبائن استلطفوه وأحبوه، بل فوجئ بأنه صار جرسونا محترفا، استأذن فى الذهاب لتغيير ثيابه فى البيت ثم يعود، حينما رآه أبوه كاد يحضنه من الفرحة: رأى رجلا شقيانا بحق، هدومه متسخة ببصمات عمل محدد، وجهه مشدود العضلات عليه سمت الخشونة والرجولة، مع ذلك قرر الاستمرار فى موقفه المسرحى، أعطاه الولد خمسين قرشا أجرة خمسة أيام قضاها بعيدا عن البيت، رفع الأب ذراعه ليطوح بها من الشباك، انقض الولد على يده كالفهد المفترس صارخا: "عندك! كله إلا هذه! إنها دمى! عرقى وشقاى! ذلى وهوانى فى خدمة من يسوى ومن لا يسوى تريد تطويحها فى الهواء؟ لأ يا أبا الحاج!" وقرص على قبضة أبيه فأخذ منها الخمسين قرشا دسها فى جيبه، غمره الأب بقبلات الفرح، لكن الغريب حقا أن الرجل حينما رضى تماما عن ابنه وطلبه للعمل

معه فى متجره الذى سوف يرثه عما قريب، رفض الولد بإصرار شديد، قال بصدق: سامحنى يا أبا الحاج! أنا بقيت زى السمكة لو طلعت من بحر القهوة أموت! الدكان بتاعك ده كابوس مانيش قده! مانيش عايزه الله الغنى عنه! روح اتبرع بيه لليتامى وسيبنى ألقط رزقى على مزاجى فى العمل اللى بأحبه!" كاد الرجل ينفجر باكيا وهو فى حال لا يعرف فيها إن كان قد انتصر أم انهزم، لكنه ربت على كتف ابنه فى مرارة وحزن شديدين قائلا: "وماله يا ابنى! ربنا يسهل لك على كل حال".

شخط فيها ولكن برقة وجدية: أنا جاد فيما أقول، عجزت عن الكلام، بكت، فأشار إلى الشيخ وإلى صديقيه قائلا: المأذون جاهز والشاهدان جاهزان أم إنك غير موافقة؟ قولى بسرعة: المأذون يمشى؟.. هتفت: لأ! أنا موافقة.

جملة موسيقية

عائدة لتوها من مستشفى قصر العينى الفرنساوى كانت مطمئنة إلى أنه استرد وعيه بالكامل بعد ما يقرب من ثلاثة أشهر فى غيبوبات متقطعة، وعدة عمليات جراحية من شدة خطورتها لم تحاول معرفة أسمائها الثقيلة ولا أسبابها المعقدة، هذه أول مرة تعود إلى البيت فرحة مستبشرة ولسوف تنام لأول مرة أيضاً بعمق ولو لساعتين اثنتين تقوم بعدهما لتنظيف الشقة وتهويتها حتى يجىء صباح الغد ليملأها بهجة وأنسا، هكذا هو فى كل مكان حتى المستشفى، يطرح نورا حوله، تحوم حوله الأرواح النبيلة والقلوب الطيبة، سرعان ما بات الجميع أصدقاءه من أكبر طبيب إلى أصغر ممرض، يخدمونه بمزاج رائق ويتمهل للبقاء بجواره أطول فترة ممكنة، يزاحمون ضيوفه الكثار، حجرته خلية نحل تفرز العسل.. ما أسعدها بهذا الحب الغامر له، لكأن هذا الحب لها هى، امتداح لذوقها لرأيها، لسلامة حكمها على الناس.

ماذا تقولين؟ عشاقه من النساء أضعاف محبيه من الرجال، منهن جميلات خلابات من الوسط الصحفى والإعلامى والفنى.. وماذا يغضبك فى هذا؟ هل نسيت مركزك أم أنك عبيطة؟ كلهن لم ولن يأخذن منه ربع ما تأخذين من عطفه وحنوه وخيره.. مثله - على فكرة - لا يعرف الحب المدنس فما المزعج فى الأمر؟ لو كان هو خبيث الطوية لنضح خبثه على كيانه وبخ السم فى صدره فلا ترتمى عليه إحداهن، إن صدره ينبوع دفء وحب وحنان، إن

الواحدة منهن ترمى بنفسها فى حضنه مثلما ترمى بنفسها فى حمام السباحة، تغطس فيه ليغمرها الموج من شواش رأسها إلى أظافر قدميها، فى حضنه لا فرق بين جميلات ودميمات.. هى صحيح لم تجرب حضنه مطلقا ولكنها هكذا تتصوره كما أنها ترى وتشعر وتحكم وتتأكد من تفاوت أعماره بين محباته من أنه الأب والجد والمعلم والأستاذ والحبيب المرتقب لدى الكثيرات الصغيرات إلى أن يكتشفن بعد قليل أنهن صائرات إلى مراتب من النضج العقلى والعاطفى يغنيهن - مثلما أغنانى - عن الأحلام الرخيصة السهلة ويعلمهن مثلما علمنى معنى العفة ويملأ عقولهن بأشياء جميلة ومهمة مثل حب الوطن والله والناس والقراءة والموسيقى والشعر والسفر والمسرح والسينما.

رمت حقيبة يدها على الكنبة الاستديو التى يفضل الجلوس عليها ليقرأ الصحف مستمتعا بلون الفساتين الزاهية التى ترتديها شمس الصباح المارة من خلال الزجاج الملون بشغل الفسيفساء للشباك الدائرى فى نهاية هذا الممر المتجه شرقا إلى المطبخ والحمام جلست، الكنبة تحتويها فى الحال كأنها متقاسة عليها، لا تود أن تبرحها، إنها جاذبيته هو، التى يتركها فوق هذه الكنبة حتى عششت فى نسيجها، يحلو لها أن تقلده فى وضع ساق على ساق والإمساك بجريدة والتقليب فيها بملل ثم تنحيها وتمسك بغيرها ثم تهملها وتروح - مثله بالضبط - تحملق فى جدران الصالة وسقفها وتعدل نظارة طبية وهمية على أنفها.. صورة جمال عبد الناصر فى برواز كبير قد اندمج فى لعب الشطرنج، صورة أم كلثوم وهى فتاة صغيرة، صورة روزاليوسف، سعد زغلول، بيرم التونسى، سيد درويش، كامل الشناوى، محمد عبدالوهاب، توفيق الحكيم، صور عتيقة فى براويز بالأويمة تشبه شغل المشربيات.. قامت، فتحت حجرة مكتبه، رائحة الكتب والمجلدات وزيت البوية المدهونة حديثا تهب فى حميمية كأنها تهتف بها: فين الأستاذ؟ تبسمت، تذكرت أنه شم نفسه فعلا، أصبح يكركر بضحكته الجميلة التى تنفرج لها أسنانه البيضاء المتسقة، أصبح قادراً على الاحتضان والتقبيل..

سبحان الله كلهن ينعمن بحضنه إلا أنا التى تقاسمه البيت والحياة يجفل وأجفل كلما اقتربت منه إلى حد الاحتكاك المباشر، حتى وهو خارج من الحمام بالفانلة واللباس يمشى مهرولاً كاللص على أطراف أصابع قدميه منفلتا إلى حجرة نومه فيوصد الباب من ورائه ليكمل ارتداء ثيابه فيما أنا واقفة أمام البوتاجاز أرقبه وأرقب فنجان القهوة حتى لا تفور.

جلست إلى مكتبه، فتحت الدرج لترتب أوراقه، أمسكت علبة الأقلام الرصاص، انصرف ذهنها يسترجع شريط حياتها فى هذا البيت: كان ذلك منذ خمسة وعشرين عاماً، كان الأستاذ أيامها عريسا على زميلته الصحفية سعدية المنيسى، وكانت هى - نوال - خادمة لأم سعدية هانم حيث قامت باستلامها من ملجأ الأيتام وربتها، فلما تزوجت ابنتها سعدية قالت لها: خذى نوال هدية منى تنفعك فى شغل البيت وتتفرغين أنت للصحافة، الهانم تحب الخلفة، تأخر حملها، ذهبت إلى الطبيب مع الأستاذ، قال الطبيب إن الأستاذ قليل الأمل فى الإنجاب لضعف فى حيواناته المنوية، يا دار ما دخلك شر كل واحد منهما يشوف حاله وتبقى الصداقة، وقد حصل، تم الطلاق، تزوجت هى من زميل لهما أنجبت منه ولدا واكتفت بذلك لمشغوليتها المتزايدة، ذات يوم جاء الأسطى برهوم النقاش وخطبها من الأستاذ، تزوجته، عاشت معه سنة كاملة تخدم الأستاذ وتخدمه تأخر حملها، قال الطبيب إن عندها مشاكل فى الرحم خلقية، طلقها برهوم، عادت إلى حجرتها فى بيت الأستاذ كأنه بيت عائلتها.

قامت إلى المطبخ عكرشت فى النملية، سحبت صندوقا من الكرتون، دلقته على الأرض فامتلأت بكومة هائلة من رءوس الأقلام الرصاص، كانت تحتفظ بها ويعز عليها أن ترميها وهى التى حملت بصمات الأستاذ وكتبت أفكاره التى أعجبت كل الناس وببقاياها تعلمت فك الخط بمعاونة الأستاذ لكى تقرأ مقالاته، الآن لا تدرى ماذا تفعل بها تريد أن تبتكر منها حلية ما، ليس الآن على كل حال، مهمتها الآن تنظيف الشقة وطبخ أكلة صحية للأستاذ، أعادت

رءوس الأقلام إلى الصندوق، أعادت الصندوق إلى النملية، خلعت ثيابها، لبست هدوم الشغل، شرعت فى تنظيف حجرة نومه.

فى الصباح أرسلت الشمس فساتينها الملونة الزاهية فتسلقت الكنبة وجهاز التلفاز وفرشت الأرض بسجاجيد صغيرة وصلت شراشيبها إلى سريرها نهضت قاعدة تمسح بيديها على وجهها كأنها تتوضأ بالضوء، نشطت فى تجهيز الغداء وتحضير الملابس الداخلية للأستاذ، إن هى إلا ساعات قليلة وجاء الأستاذ فى صحبة اثنين من الأحبة كانا ساهرين معه لتلقى آخر جلسة علاج طبيعى قبل المغادرة.. كان الغداء جماعيا، فى المساء نزل صديقه محمود وعاد بعد قليل وفى صحبته شيخ مهيب، جلسوا فى مكتب الأستاذ، قدمت لهم الشاى والكيك نظر لها الأستاذ وقال: اقعدى يا نوال، قعدت على حرف الكرسى وجلة، قال الأستاذ: تقبلين الزواج منى يا ست نوال؟

ست؟! ليست من عادة الأستاذ أن يسخر منها نظرت فى قلب عينيه بتركيز، لا ترى فيهما سوى البسمة الطالعة من قلب طيب، سالت دموعها، شخط فيها ولكن برقة وجدية: أنا جاد فيما أقول، عجزت عن الكلام، بكت، فأشار إلى الشيخ وإلى صديقيه قائلا: المأذون جاهز والشاهدان جاهزان أم إنك غير موافقة؟ قولى بسرعة: المأذون يمشى؟.. هتفت: لأ! أنا موافقة.

تم الزواج بالفعل وهى لا تزال مضطربة قلقة: إنها طوال خمسة وعشرين عاما فى هذا البيت فى عز صباها والأستاذ فى فتوته وعزوبيته فلم تصدر عنه حركة دنيئة ولم يخدش حياءها بكلمة بل كان مثالا على العفة والاحترام لا يسمح لها بدخول حجرة نومه وهو بداخلها.. ولكن يا بنت الناس، ماذا سيفعل بك وتفعلين به وهو الآن فى الحادية والثمانين من عمره وأنت فى الخامسة والأربعين وقد صرتما زوجين على سنة الله ورسوله؟!.. أخيرا صارا وحدهما لبست قميصا مفتوحا زاهى اللون يبرز مفاتنها، دعاها للجلوس بجواره على السرير أخذها فى حضنه، احتواها، مالت به فمددته بجوارها وغاصت فى حضنه، نام رأسها على كتفه وهدأت من

حرارتها إذ تذكرت فى الحال أنه لم يبدأ بعد مرحلة النقاهة وإنها لأحرص منه على صحته، تسلل صوته الدافئ الباسم إلى أذنها وهو يتأهب للنوم:

- "خفت أن أموت فجأة فيطردك صاحب الشقة فتلوصين!..
وليس لك أهل سواى!.. هو الآن لن يجرؤ على طردك!

اقشعر بدنها من توجس مفاجئ، جذبها إليه وربت بيده على ظهرها فاستكنت تماما، حومت فوقهما أنغام ناعمة قادمة من الراديو المفتوح دائما على محطة الموسيقى، ما إن كرر النغم نفسه حتى انتظم صوت تنفسهما فى فلك النغم.

"على سبيل الدعابة قمت لأقيسها. لبست الجاكيت فإذا به قد لبسني وانضبط على الكتفين والصدر والكمين بالملليمتر. هتفوا جميعا فى فرح كأننى حاوٍ قدم نمرة بارعة. أشاروا إلى البنطلون وقالوا: بالمرة. أسكرتنى الحالة فلم أجد حرجا فى خلع بنطلونى لارتداء الآخر."

بكوية من سوق الكانتو!

حوّدت أشرب حجرين الشيشة فى قهوة خميس فى شارع الجودرية بحى الغورية العتيق قبل أن أترك المنطقة عائداً إلى مسكنى فى العمرانية، فمنذ أن نفخ المولى فى صورتى ببركة دعاء الوالدين وتوظفت بالثانوية العامة فى هيئة الآثار التى أرسلتنى ضمن طاقم من الموظفين لإدارة بيت أثرى من القرون الوسطى بالقرب من حى الغورية حيث يؤمه السياح وأولاد البلد والدخول فيه بتذكرة مدفوعة الأجر، أصبحت زبوناً دائماً فى قهوة خميس حيث أجد فيها خدمة جيدة، كما أن جوّها لطيف وجذاب، إذ هى عبارة عن دكان من بقايا العصر المملوكى بباب ذى ضلفتين من الخشب يغلق بدرفيل حديدى وقفل كبير، وحين تجلس فيها تشعر بأنك كما لو كنت تمثل دوراً فى فيلم تاريخى اختلطت فيه القرون الوسطى بالعصر الحديث والحياة الراهنة.. جميع أشكال وألوان وأنواع الملبوسات موجودة حواليك، فوق أجساد ناس، معلقة على شماعات فى الشارع، وفى فتارين زجاجية، من العمامة الصعيدية المملوكية إلى الطربوش العثمانلى إلى الطربوش المغربى والعمامة الأزهرية والطواقى، ناهيك عن الجلابيب والقفاطين والبدل والبنطلونات الجينز والسترات الجلد والشمواه وأحذية معروضة بكثافة وأرجل حافية بلا حصر تمخر عباب الحارة ليل نهار من باعة سريحة إلى متسولين وعتالين وعربجية وبائعى عرقسوس وبطاطا وخضراوات وفواكه وملابس على عربات كارو.. ذلك أن

الحارة أصبحت منذ وقت بعيد جداً سوقاً للكانتو، أى الملبوسات القديمة، ربما هى ثالث أشهر أسواق الكانتو فى القاهرة بعد وكالة البلح وبداية شارع الموسكى من جهة العتبة.

فيما مضى كنت ألبس من سوق الكانتو، أستلقط منه "جاكيت" أو "بول أوفر" أو "بنطلون" أو جزمة، ولكن يظهر والله أعلم أننى منذ توظفت فى الميرى ركبتنى نعرة العزة بالنفس كموظف حكومى مُعتبر، لا يصح أن يُرى وهو فى سوق الكانتو يساوم على ملبوسات مستعملة وقد يُضبط وهو يخلع ثيابه فى عرض الطريق ليقيس الثوب الذى يساوم عليه، إنما الذى دار فى خلدى آنذاك أن اللبس من سوق الكانتو نادراً ما يكون فى تمام اتساقه على جسدى، دائماً أبدا يحتاج لتقييف أو ترميم عراو، ولكن حقيقة الأمر كما بدت لى وقتها أننى بمجرد أن أصبحت أقبِّض راتبًا شهرياً مضمونا اشتهيت لبس الجديد الذى لم يسبق أن لبسه أحد سواى، اشتقت إلى رائحته المبهجة قبل أن يزخمها ويكمكمها عرق الآخر، كانت سعادتى لا توصف وأنا أرتدى ملابس جديدة حتى وإن كانت متواضعة المظهر والقيمة فإنها فى النهاية جديدة وعلى مقاسى أنا، أفك بوشها أنا، أفض شوكها أنا.

كففت عن اللبس من سوق الكانتو لكننى أدمنت الجلوس على قهوة خميس التى يجلس عليها بائعو سوق الكانتو، خاصة السريحة، الواحد منهم يسرح بقطعتين أو ثلاث يبيعها على رواقة بطرق مبتكرة، إما لحسابه الخاص وإما لحساب واحد من أصحاب المحلات، أى أن القهوة تعتبر سوقا للكانتو بعيداً عن السويقة التى يختلط فيها الغث بالسمين ولابد أن ينطسّ الزبون فيدفع فى الغث ثمن السمين.. الجالس عن يمينك أو يسارك أو أمامك إن كانوا فى مجملهم عشرة أشخاص، فستة منهم على الأقل باعة للكانتو ولكن على صور أنيقة متحضرة شكلا فحسب، هذا الجالس أمامك على سبيل المثال، أفندى يجلس واضعا ساقا على ساق، يدخن السجائر الأجنبية بلذة متباهية، يطوى على ركبته "جاكيت" محترم، أو "بالطو جبردين" معتبر، أو شال من الكشمير أو عباءة. إن كنت وجهًا

جديداً على المقهى ستتصور أنه زبون تخفّف من هدومه الثقيلة، لكنك بقليل من دقة الملاحظة ترى أنه يرتدى ملابس أثقل، كما تلاحظ أن المنظر متكرر حواليك على أى حال فبعد قليل سترى أن واحدًا منهم أو أكثر قد استقبل شخصاً أو أكثر واشتبك معه فى فصال ممسكا بهذه الهدمة أو تلك يقلب فيها ويتفحص الجيوب والأزرار وخط العرق الذي يلمع فوق الياقة، سرعان ما تصير المساومة مشهداً مسرحياً عالى الصوت تتطاير فى حواره أيمانات مغلظة بنبرات حادة منفعلة فى عراك حقيقى: علىّ الحرام من دينى طلاق تلاتة أنطس فى نضرى! ثم يؤوب العراك إلى رقة وحق مولانا الحسين ما جابت تمنها .. إلخ.

الفرجة عليهم بالنسبة لى كانت ممتعة، بل سرعان ما صرنا أقرب ما نكون إلى الأصدقاء، معظمهم يجاملنى بحجر شيشة أو بواحد شاى ليستقطبنى فى صفه إذا ما نشأت مساومة بينه وأحد الزبائن على قطعة يبيعها، فحينما ينفعل البياع يقترب منى عارضا الهدمة تحت نظرى هاتفا: "بذمتك يا سعادة البيه الهدمة دى تتعيّب!"، فلا أجد مفرا من ملامستها والتقليب فيها ظاهريا لكى أقول: "صاغ سليم!"، عندئذ كثيراً ما يكون لشهادتى تأثير مفيد، على الأقل قد يعيد فتح باب المساومة بعد إغلاقه، أو قد يرجع الزبون بعد إيهام بأنه انصرف، ليزيد بضع برايز أو شلنات، وحينئذ لا بد أن تتم البيعة، ولابد أن يكون كلاهما كسباناً .. إلى أن داهمنى فى ذلك المساء الولد أبو سبعة، له بالطبع اسم فى شهادة الميلاد لكنه معروف هنا بأبى سبعة نظرا لأنه مولود ابن سبعة أشهر، فبدت ملامحه حتى وهو فى الأربعين من عمره كأنما ينقصها شىء ما، ظل ما، لكنه ولد سفروت عفريت يعرف كيف يستلقط الهدمة والزبون الملائم لها بعبقرية يحسده عليها جميع الباعة. دخل القهوة طاويا على ذراعه بدلة كاملة على درجة عالية من الفخامة الزاعقة، رائحة صوفها فائحة عن بعد، صوف إنجليزى هيلد، كاروهات دقيقة مثل ملامح أبو سبعة، لونها كحلى غامق عليه سمت مخملى أرستقراطى يضفى على قماشة البدلة

ظلاً مهيبًا يضاعف من حجمها فى القيمة، كان بينى و"أبو سبعة" شبه صداقة واستلطاف لله فى لله، كان متجهًا ناحيتى ومن ورائه ذيل من أنداده السريحة ينادونه وهو يعطيهم الطرشاء حتى اقترب منى، دحرج المسا وجلس بجوارى، بصوت دافئ شديد الحميمية هدرت نبراته فى أذنى "إلهى وإنت جاهى يارب يكون لك نصيب فى الحتة السُقع دى! يا بخته اللى حيلبسها حترفعه للسما!.. بص شوف القماشة! شوف البطانة زى المراية!.. على الطلاق بالتلاتة صاحبها حلف لى قدام العيال دول إن دى أول لبسة ليها الليلة". أومأ العيال بالموافقة وإن بدت فى أعينهم نظرات الحسد. قال الولد غشلق "خد عرقك فيها تلاتين جنيه وسبهالى يا أبو سبعة أنا أعرف أبيعها بكرامتها!". وقال زقلمة "على بأربعين!". وقال أبو شامة فى تحذير "على فكرة إن ما اتصرفتش فيها بسرعة ممكن صاحبها يجيب فلوس ويرجع ياخدها!". شوّح أبو سبعة فى وجوههم بثقة: "ولا حيقدر يعمل أى حاجة! ولا حتشوفه هنا تانى غير بعد عمر طويل!". قلت فى توجس: "فيه إيه يا بوسبعة". قال: "أقول لحضرتك. ثم أشعل سيجارة، مارلبورو باستمتاع. بقى الحكاية إن وائل بك صاحب البدلة دى ابن واحد من الحرامية التقال قوى اللى مالكين البلد من بابها.. ناس عترة! الواد قمارتى غشيم ومتعافى متهيأ له إن ما دام أبوه سارق البلد هوه كمان حيرغم الحظ يقف معاه، كل ما يخسر يعاند الحظ ويلعب! لعب على كل حاجة معاه! بص لقى نفسه مديون بخمسين جنيه وبرضه عايز يلعب! يكفيك شر برشام أبو صليبة والماكس فورت بيخلى البنى آدم دماغه زلطة!.. بص للى حواليه: حد فيكم يسلفنى خمسين جنيه؟ اللى حواليه كلهم كسبانين منه وعارفين ان عربية الـ"بى إم دبليو" راكنة بره فى شارع الأزهر!.. محسوبك واقف يتفرج! أنا دايما أقف عند الخن ده فى أواخر الليالى ألقط رزقى من حاجات زى دى!.. قلت له يا وائل بك أنا أسلفك خمسة وسبعين جنيه لو قلعت البدلة دى واديتهالى!.. بينى وبينك أنا قاصد! وتربة أبويا ومقام الحسين أنا قاصدها! فرصة يا جدع

أشمت فى واحد منهم وأقلعه عريان بلبوص وأتحكم فى مزاج ديك أم اللى خلفوه!.. لكنه طلع أكتر غتاتة منى! ابن اللبؤة أبرد من لوح التلج! فاجأنى بقوله: خليهم مائة وأنا أعطيها لك!.. يا ابن ديك الكاااالب! طبعا! إنت حيهمك بدلة ولا عربية وأبوك سارق بلد بحالها؟.. قلت: ماشى! إقلع!.. ساب الجاكت وراح لعربيته جاب هاندباج فيها ترينج! أصله من حسن الحظ كان جاى من النادى على هنا!.. لبس الترنج وإدانى البدلة قلت مفيش غير خمسة وسبعين بس إن كان يعجب!.. قال زى بعضه ولو إنها أول لبسة ليها لكن باين عليها وش خسارة!". اقتحمنا أكثر من زبون، حوالى خمسة زبائن شاهدت الحسرة فى عيونهم على ضياعها منهم إما لأنها أوسع وإما أضيق من اللازم، لكن المدهش أنهم لم يستتكروا الرقم الذى طلبه أبو سبعة مائتى جنيه بالتمام.

على سبيل الدعابة قمت لأقيسها. لبست الجاكيت فإذا به قد لبسنى وانضبط على الكتفين والصدر والكمين بالمليمتر. هتفوا جميعا فى فرح كأننى حاو قدم نمرة بارعة. أشاروا إلى البنطلون وقالوا: بالمرة. أسكرتنى الحَالة فلم أجد حرجا فى خلع بنطلونى لارتداء الآخر، شددت السحاب وشبكت عروة اللسان فى زرارها فإذا هو غير محتاج لحزام صفقوا منبهرين، أشاروا إلى مرآة الجدار من خلفى فاعتدلت ناظرًا فيها فإذا أنا شخص آخر تمامًا، برغم رداءة القميص وياقته الرخوة الرخيصة فإننى بدوت كأحد الباشوات. هتف أبو سبعة: "طلاق تلاتة ما إنت قالع!". وقالوا جميعا: "تبقى غلطان لو قلعت! دى رزق متفصل عليك تقلعه؟".

جلست مستسلما، وحين رحت أنقل حاجياتى إلى جيوبى الجديدة بدت لى ثيابى التى كنت معتزا بها منذ قليل شيئاً رديئاً بائسا وحقيرا جدا، بل أشفقت على نفسى ورثيت لها حرمانها من طراوة الهدمة الطيبة الثمينة حتى وإن كانت مستعملة!

لكأن أبو سبعة قرأ خواطرى وعاير مشاعرى، قال ناظرا فى عينى بأخوية عميقة الدفء: "هات ميت جنيه بس! مش خسارة فيك!" من ربكتى لم أفطن إلى أننى منذ شهور أحوش مائة جنيه

لإصلاح سيفون المرحاض فى شقتى، وكنت متوهماً أنها اكتملت فإذا بى أضطر إلى إكمالها بما فى جيبى من مصروفى المقرر لنهاية الشهر. دسها أبو سبعة فى جيبه، ثم طوى ملابسى القديمة ورشقنى بنظرة تفيض سما واحتقارا: "طبعا مش لزماك الهلاهيل دى عدم المؤاخذة!". ترددت وتلجلجت، لكننى حينما رأيت شعورا بالاشمئزاز يكاد يغادر عيونهم ويرشقنى راوغت قائلا على سبيل المداعبة: "بكم ستبيعها؟". قال ببساطة "شوف إنت ما يمكن أن يدفعه بتاع الروبابيكيا من غير مؤاخذة برضه!". ثم ضحك فضحكوا وضحكت أيضا مداراة لكسوفى. ثم انصرفوا جميعا وجلست وحدى أستوعب ما حدث وقد تبين لى أننى من غد يجب أن أوصى "أبو سبعة" بأن يستلقط لى قميصا أجنبيا يليق بالبدلة، ويا حبذا رباط عنق وحذاء.

هجعت الحارة وخفتت أضواؤها وخلا المقهى إلا من العابرين آخر الليل. كانت سعادتى بالبدلة قد منحتنى لذة الجلوس طويلا منجعصاً واضعا ساقا على ساق، حقا إن الثوب الثمين يرفع الروح المعنوية، ولكن روحى هبطت فجأة إلى سفح سحيق حين تذكرت أن ما بقى فى جيبى من نقود يكفى بالكاد حساب المقهى على الحركرك، وهذا يعنى ببساطة أننى سأبقى ها هنا حتى مطلع الشمس فأتوجه إلى مقر عملى وأتصرف فى أى سلفة من أى زميل. كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة صباحا حينما حاسبت الجرسون وأطلعته على حقيقة موقفى، فواسانى بابتسامة وبحجر شيشة على حساب المطرح، جعلت أنفخ الدخان فى سأم وتعب. فجأة اندفع من تحت إبطى رنين موسيقى صادح، عندئذ شعرت لأول مرة أن الجانب الأيسر للجاكت أثقل من الجانب الأيمن، تحسست البطانة، إنه الجيب الصغير التحتانى، له لسان خارجى يغطيه وينغلق عليه بعروة وزرار. فصلت العروة عن زرارها، مددت أصابعى، سحبته، إنه تليفون محمول فى حجم علبة الكبريت، جعلت أحاول فك ألغازه، لكن الدنيا سرعان ما أظلمت، راحت الظلال السوداء تتدفق على من كل ناحية، وأكثر من يد قوية تطبق

على يدى وكتفى. رفعت رأسى مرتعبا، مجموعة من رجال أقوياء ذوى وجوه صلبة كأيديهم. قبض كبيرهم على ذراعى وأوقفنى: "فين وائل الشوربجى؟". تحشرج صوتى: "وائل مين حضرتك؟". مادريت إلا ووجهى قد انخلع من مكانه بصفعة طوحتنى كعود الحطب: "أفق! وائل الشوربجى الذى تمسك الآن بتليفونه المحمول وتلبس بدلته! انطق!". طاش عقلى وراح، صرت أتخبط، قلت من خلال البكاء: "سمعت الليلة عن واحد اسمه وائل وإنه ركب عربته الـ "بى إم دبليو" ومشى!". قال: "إذن فأنت تعرفه وتعرف ماركة سيارته فوق البدلة والموبايل! اسمك إيه؟". قلت: "مسعود عبد الراضى من الآثار!". صرت أنظر حوالى لعلنى أجد من أستنجد به فلا أجد، حتى الجرسون اختفى!. أحاطت الكلابشات الحديدية بيدى، اقتادونى إلى عربة الشرطة الزرقاء وكان ضوء الصباح فاتح الزرقة، فشعرت أننى قد صرت فى العراء عريانا تماما لدرجة أن جسدى راح ينتفض من الشعور بالبرد قبل الخوف، لا أدرى لماذا مرت ثيابى القديمة أمام عينى فبكيتها بحرقة حقيقية، ولم أكن أدرى أن ثياباً أشد منها بؤسا وحقارة تنتظرنى فى السجن، حيث أمضيت فيه عشر سنوات من عمرى بتهمة الضلوع فى إخفاء لص محتال مقامر اسمه وائل الشوربجى لم يظهر له أثر لا هو ولا سيارته منذ تلك الليلة إلى هذه اللحظة.

"ما إن بدأت الحلقة حتى راح جسد عبده السيد عبده يتضاعف حجمه شيئا فشيئا حتى خُيِّل للجميع أنه يوشك أن يفرقع.. احمرت عيناه كأنه يبكى دما قانيا وهو يحملق مذهولا فى حفيده، غير مصدق أن حفيده قد هاجر سراً إلى إسرائيل واشتغل هناك وتزوج من يهودية."

الغضب

عم عبده السيد عبده أحد المعالم الأثرية البارزة فى بلدتنا، إنه أكبر معمر ليس فى بلدتنا وحدها بل فى جميع القرى المحيطة بنا، وربما فى محافظة كفر الشيخ كلها. فلو حسبنا عمره بناء على شهادة الميلاد التى يزعم دائماً أنها فى ملفه الوظيفى فى السراى الخديوى فى القاهرة لكان عمره فوق التسعين بثلاث أو أربع سنوات، لكننا لو حسبناه بناء على الأحداث التى شافها والحواديت التى تدور حوله لوجدنا أن عمره قد يتجاوز المائة عام بكثير فحينما قامت هوجة عرابى - التى يدرسونها لنا فى المدارس باسم الثورة العرابية - كان هو رجلا كبيرا من موظفى الخاصة الخديوية، وحينما قامت ثورة التاسع عشر كان هو بالصدفة مرافقاً لأفندينا فى سفرة علاجية سرية فى مدينة باريس، أى أنه شاف مدينة باريس وتمشى فيها مثله مثل رفاعة الطهطاوى وطه حسين وتوفيق الحكيم ومثلهم أحب واحدة وأحبته أكثر من واحدة وكان قد أوشك على الزواج من المحبوبة والعودة بها إلى مصر لولا أن المرض اشتد على أفندينا فخجل هو من نفسه وخلع أمر الزواج من دماغه إلى أن يتم شفاء أفندينا لكن أفندينا عاد قبل أن يتم الشفاء إلى مصر لأن استكمال العلاج كان مجرد عقاقير دوائية أمرها ميسور فى مصر.

البلدة كلها تعرف أنه ليس يفشر، فنحن جميعا نعرف تاريخه بدقة، تناقلته الأجيال ورددته ألسنة الناس فى مجالسهم فى بيوتهم فى مدارسهم فى دكاكينهم فوق مصاطبهم، من قبيل الطرافة أحيانا، وفى

معظم الأحيان من قبيل الإعجاب والتقدير. كل الناس كبيرهم وصغيرهم ينظرون إليه باحترام، يعاملونه بود عميق، يعتبرونه شيئاً ما مهما، قيمة ما يجب احترامها.. إلا أبناءه وأحفاده لا يعبئون بشيء من هذا الذى يحكى عنه، هى فى نظرهم مجرد حواديت أشبه بالخيال، وهو مجرد رجل طال به العمر حتى شهد الثورة العرابية وثورة التاسع عشر وثورة يوليو وثورة التصحيح وما تلاها، عاش عهود الخديوى توفيق والسلطان حسين والملك فؤاد والملك فاروق واللواء محمد نجيب وجمال عبد الناصر وأنور السادات وحسنى مبارك، وشاف الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية وحرب تقسيم فلسطين وحرب ستة وخمسين وحرب النكسة وحرب أكتوبر وحرب حسن نصر الله الأخيرة مع إسرائيل فى لبنان.. ولا يزال صلبا عفيا قوى الذاكرة يفرك الحديد بين أصابعه رغم أنه ليس يأكل إلا الفتات ولا يشرب أى مكيفات ولا يكف عن التجوال فى البلدة يلاطف الناس ويلاطفونه، يتسلى بهم ويتسلون به، يضحك من تفاهتهم وخراعتهم وحبهم للحياة أكثر من حبهم لكرامتهم.

هو أسود غطيس، يرجع أصله إلى الجنوب السودانى، عملاق فارع القوام متين البنيان ممتلئ الجسد لكنه بهلوان مدهش، من فرط سرعته ومرونته ولياقته البدنية لا تكاد تراه وهو يقفز فوق ظهر الحصان، فجأة تراه راكبا، فجأة تراه واقفا، فجأة تراه جالسا فى القهوة، فى أقل من ثانية تراه قد صار فى الشارع العمومى يساعد الناس فى رفع شيء ثقيل، أو فى إطفاء حريقٍ أو فى استنهاض بهيمة تعثرت والعجيب أن الجميع، صغارا وكباراً، لا يقولون له يا عم، بل ينادونه باسمه المجرد نظرا لما بينهم وبينه من حميمية ترفع الكلفة، والأعجب أنه سعيد بذلك إذ إنه فى غاية من الظرف واللطف وخفة الظل كطفل شقى عابث، لا تجاعيد فى وجهه ولا انحناء فى قامته كما أن حنكه كامل الأسنان والأضراس والأنياب قويها.

شغلته الرسمية المعروفة للجميع من قديم الأزل كانت: طباخا، كان الطباخ الخصوصى لأحد أمراء العائلة العلوية المالكة لعله من أبناء الخديوى توفيق وقد حدث فيما ترويه الحواديت ـ أن أقام الأمير وليمة على شرف المندوب السامى الإنجليزى.. فجن جنون المندوب السامى

من سحر مذاق الطعام بجميع أصنافه، طلب الفرجة على تفاصيل هذا المطبخ الشرقى الفاتن. فى المطبخ قدموا له شخصية الطباخ الذى وضع يديه فى كل شىء أكلوه على المائدة يومها. راح المندوب السامى يثنى عليه، يمتدح سماحة نفسه فى الطبخ، تمنى لو رزقه الله بطباخ مثله، فما كان من سمو الأمير إلا أن دفعته الحماسة فقال للمندوب السامى: "تفضل خذه إنه هدية منى إلى جنابك!". كلام الأمراء طبعا لا يرد ولا يراجع.. وهكذا كان على الطباخ عبده السيد عبده أن يحزم حقيبة أغراضه وينتقل إلى قصر الدوبارة ليطبخ للمندوب السامى الإنجليزى، يطبخ لعدو بلاده وأسرته التى يجب أن تتسمم بالسم الهارى - أطعمة شرقية مصرية تفتح الشهية. كان من المستحيل عليه أن يرفض تنفيذ أمر الأمير بل أن يعترض على العمل فى خدمة العدو الإنجليزى الأزرق العينين كسمكة ميتة.

يقول إنها كانت حوسة، لكن الله ألهمه الحكمة، صبر على العمل شهرين ثلاثة، ثم زعم لرجال قصر الدوبارة أن أمه توفيت فى السودان وأنه يطلب إجازة يومين ثلاثة ليدفن أمه ويتلقى عزاءها ويعود، لكنه تأكد أنهم غير مقتنعين بكلامه ومن ثم فلن يعتقوه.. فغافلهم بليل، وتسلل هاربا، تاركا أغراضه فى حجرته، اتكل على الله إلى السودان، إلا أنه فى المركب سمع ركابا يقرءون فى صفحة الحوادث ويتندرون ضاحكين بهزء وسخرية، أصاخ السمع، تبين له أن المانشيت الكبير فى الجرنال يقول إن طباخ المندوب السامى سرق نقودا ومجوهرات من بيته وهرب.. يا دى الحوسة، مع ذلك لم يكن أمامه ثمة من مفر غير الهرب غير أن أقاربه فى السودان قرءوا الخبر وخافوا من استضافته بل رفضوا تصديق أنه لم يسرق شيئا أيصدق هو ويكذب المندوب السامى؟ غير معقول طبعا فكر فى تسليم نفسه للكشف عن الحقيقة لكنه خاف حينما تأكد أن الشرطة تتعقبه فى كل مكان للقبض عليه وأن الصحف تنشر أخبارا يومية متواصلة وترصد جائزة لمن يرشد عنه، والناس تتكلم فى الشوارع وعلى المقاهى مما دفعه إلى الإمعان فى التفكير والتخفى.

هكذا أمضى المسكين سنوات طويلة من عمره بعيدا عن زوجه، وعياله منفيا فى أماكن تتجدد كل يوم من الخرطوم إلى أم درمان إلى

حلايب السودانية فحلايب المصرية، إلى أن استقر فى نجع أسوانى يعمل خفيرا لمزرعة خيول يملكها مليونير أعرابى.. إلا أن أذن الله لغريب الديار أن يعود إلى زوجه وعياله.. قامت ثورة يوليو.. أقلعت المحروسة بالملك فاروق منفيا إلى إيطاليا، للم المندوب السامى أغراضه وجيشه وغادر البلاد إلى غير رجعة. لم يعد ثمة من أمير أو باشا، الكل باتوا سواسية نجح فى إقناع واحد ممن يملكون مدخرا من المال فشاركه فى إنشاء مزرعة لتربية الخيول والماشية شملها الله برعايته وتوفيقه، إلا أن نجاحها أغرى الكثيرين بتقليدها ثم دخلوا فى منافسات ونزاعات ومعاكسات حتى فسد المشروع على الجميع ومات.

عاش عبده السيد عبده سعيدا بأولاده وأحفاده وإن فى شظف من العيش، إلى أن فُجع ذات يوم فى اختفاء أحد أحفاده الذى كان يحبه ويتوقع له النجاح فى الحياة، كان الولد معذورا، فبعد أن اجتهد وتخرج من كلية الحقوق لم يجد وظيفة ولم ينفع فى شغل المحاماة حيث كثر عدد المحامين فى البلد، فلما يئس الولد من الحكومة والبلد طفش دون أن يترك وراءه أى خبر. جفت دموع أبيه وأمه وسلموا أمرهما فيه لله إلا جده عبده السيد عبده لم تجف دموعه ولم يهدأ، كل حين يسافر إلى القاهرة ويسأل فى السفارات العربية، ويمر على المستشفيات، وعلى الأشقياء من قطاع الطرق وأبناء الليل فى البلاد البعيدة، يريد أن يرسو على بر: هل مات؟ هل تسلل إلى دولة بعيدة بدون أوراق رسمية؟ هل اختطف؟ هل وهل وهل؟... وكان الناس إعجاباً أو سخرية يتندرون بقولهم إنه أخيرا قد وجد شيئا يشغل به أيامه ويمد حبل الحياة فى عمره.. إلى أن فوجئ مؤخرا بمن يهمس فى أذنه بكثير من التحفظ الخبيث بأنه قد شاهد حفيده الغائب على شاشة التليفزيون فى برنامج على قناة دريم الفضائية، فانتفض الرجل كالبركان الهادر: "ليتك نادتنى" فقال له: "اطمئن إن الحلقة ستعاد بعد ساعتين من الآن!"

من فوره جعل يهرول قاصداً هذه العشة القائمة فى مدخل البلدة كان صاحبها قد حولها إلى مقهى، فيها تليفزيون بوصلات دش مسروقة تعرض مباريات كرة القدم المشفرة والأفلام غير المراقبة، ويسهر فيها الناس إلى قرب الفجر، رآه بعض الزبائن فعرفوا لماذا جاء. شعر هو فى عيونهم بنظرات غير مريحة توجس شرا، كتم فى صدره بوادر غضب

مجهول السبب. جلس مرابطا أمام جهاز التليفزيون يحملق فى الشاشة بعينين واسعتين نهمتين، وفى كل برهة يسأل من حوله: أهذه محطة دريم؟ فيهز بعضهم رأسه بالإيجاب ويهرب الآخرون بنظراتهم، وأخيرا جاء الذى كان قد أبلغه، فضبط القناة على البرنامج..

ما إن بدأت الحلقة حتى راح جسد عبده السيد عبده يتضاعف حجمه شيئا فشيئا حتى خُيِّل للجميع أنه يوشك أن يفرقع.. احمرت عيناه كأنه يبكى دما قانياً وهو يحملق مذهولا فى حفيده، غير مصدق أن حفيده قد هاجر سراً إلى إسرائيل واشتغل هناك وتزوج من يهودية أنجب منها ابنتين وقد حصل على الجنسية الإسرائيلية ولعله قد غاب عن ذاكرته أن أخاه الأكبر قتلته إسرائيل فى النكسة، وأن ابن عمه قتلوه فى حرب أكتوبر. نكس الرجل رأسه لبرهة قصيرة، ثم رفع رأسه والشر يتطاير من عينيه، ثم نتر نفسه واقفا فكأنه تفكك إلى عشرات القطع ولم يبق فيه إلا عينان تتغرزان فى وجه الحفيد بحقد حيوان مفترس غضوب، لحظتها كان الحفيد يتكلم عن الأسباب التى دفعته إلى الهجرة إلى إسرائيل وعن الأسباب التى تدفعه الآن إلى الرغبة فى العودة إلى مصر لكنه لا يعرف كيف يحل العديد من المشاكل التى غرق فيها.. عندئذ سُمع دوى الانفجار المروع، قنبلة تفجرت فى لمح البصر، رآها الجميع ورفضوا تصديقها، كان مستحيلا أن يصدقوا أن عبده السيد عبده جمع قبضة يمناه ونشن على وجه حفيده، فغاصت قبضته فى قلب الشاشة ثم انتزعت منها بنفس القوة الجبارة مثلومة دامية الذراع، كان المقهى قد أصابه زلزال بعثر الناس والأكواب والكراسى، ثم أصيب المكان بمن فيه بشلل كامل، يحملقون فى عبده السيد عبده كالموتى، ويحملق هو فى بحيرة من دمه تكونت على الأرض تحت قدميه. بعد برهة أمسك ذراعه بيده اليسرى، استدار محنى القامة، اندفع خارجا من العشة المقهى لا يلوى على شىء.

مضى يهرول كالدجاجة المذبوحة. تابعته العيون الذاهلة إلى أن اختفى فى الممر المؤدى إلى الوحدة الصحية. عندئذ أفاق القهوجى فانفجر باكيا فى فجيعة ثم ضرب الهواء بقدمه صارخا: يحرق ديك الكفرة.

❞ ما إن رأيته ينتش بمخالبه فى لحم الكرسى حتى أمسكت بالمسطرة الحديدية وغافلته بضربة عنيفة جدا، جاءت فوق ظهره المقبب فانحط مبطوشا دائخا يتلوى ثم ما لبث من حلاوة الروح حتى تجمع وقفز مهيضا ثم اختفى. ❝

العلاج المستحيل

نشأت العلاقة بين القط نور وبينى فى سرعة أدهشت زوجى وعيالى. لقد مكث ما يقرب من أسبوع يتخفى تحت المقاعد وفى أركان خفية فلم يكن يظهر إلا بظهور طيف ابنتى جيهان. لم يكن يأمن لأحد سواها باعتبارهما "معرفة قديمة".. فجيهان كانت تذاكر مع لينا زميلتها فى كلية الألسن، المقيمة معنا فى نفس العمارة فى الطابق قبل الأخير، إنها بنت محمود الأنصارى طبيب المخ والأعصاب الشهير بالزهد فى الشهرة والمكاسب برغم تدفقهما عليه، هو رجل لطيف جداً، متدين، مغرم بتربية القطط، لديه قطة رومية عشرت من قط سيامى فأنجبت ستة جراء، تلقت جيهان وعدا بواحد منها بعد فطامه، وبالفعل أهداها نور وعمره لا يزيد على ستة أشهر، كان جميلا بل ساحرا، أبيض فى لون الحليب، يخطر فى مشيته فى كبرياء وثقة ورشاقة كأنه ملك الملوك.. لم أكن مرحبا به فى أول الأمر، لكننى فوجئت به ذات يوم يجترئ على الظهور بيننا عند الغداء، ازداد جرأة، قفز صاعدا ثم مقعيا فوق ترابيزة السُفرة يدور برأسه مصافحا وجوهنا ثم متفحصا فيها واحداً بعد الآخر، لكنه كان أكثر وعيا وتحضراً منا، فقبل أن ينهره أحد وقف قافزا إلى الأرض بمجرد رؤيته لأطباق الطعام قادمة من المطبخ فوسع لها المكان من تلقاء نفسه.. باستثناء جيهان كنت أول من ولف عليه: فيما كنا جالسين فى غرفة المعيشة تسلل من وراء المقعد الأسيوطى وداعب أظافر قدمى

المطوية تحتى، فقفز فصار فوق ركبتى، تشممنى بلباقة ولطف ثم تكور فى حجرى مغمضا عينيه، ثم ما لبث حتى انتقل إلى حجر زوجى بنفس الطريقة، وهكذا أخذ عينة من أحضاننا جميعا فسجلها فى ذاكرته، ثم صار البيت مملكته ووضح أن كلينا يستلطف الآخر.

كان ينتفض قائما حين أقف، يقفز من مكانه فى لمح البصر يسبقنى إلى مكتبى، فإن رآنى غيرت سكتى هرول عائدا ليمشى فى حذائى، فإن وقفت فى المطبخ أخذ يتسلل بين قدمى يتمسح بهما فى مودة دافئة، ففى الحال تقوم فى مخيلتى جدتى نفيسة، كلماتها مثل الكتاب المنزَّل فى دارنا فى البلد، من أن القطط لا تولف إلا على ذوى القلوب الطيبة لأنها خبيرة بها وبهم تميزهم من بين ملايين البشر، فأشعر عندئذ بزهو داخلى يقارب حالة الرضاء عن النفس، غير أن جدتى نفيسة تتربع فى قعدتها المفضلة فوق قبة الفرن لتكمل مقولتها فى جدية مهيبة: "على فكرة يا عيال!! إياكم وإيذاء القطط فإنها أرواح ناس من أهالينا صعب عليهم أن يغادرونا إلى دار البقاء إلى الأبد! لعلها روح أمك أو أختك أو أبيك أو عمتك أو خالتك أو أى واحد ممن يحبونك! حينما قبضها عزرائيل وتركها حرة فى رحاب الله تلبست قطة تكون قريبة من أحبابها لتستطيع أن تودهم وربما تحرسهم من الأرواح الشريرة!! إيذاء القطط يا عيال جريمة لا يغفرها الله أبدا! والعقوبة عليها عاجلة قاصمة للظهر فاجعة رادعة عادلة جزاء من تغره قوته على إيذاء كائن ضعيف جميل كالقط يكفيه نبلا وأصالة أنه انسلخ عن بنى جنسه المتوحشين ساكنى الكهوف والغابات آكلى لحوم الفرائس والجيف وانتمى إلى بنى الإنسان! أجدادنا المصريون أنسنوه وأهدوه إلى العالم فبات يتقدم فى الأنسنة وبنو البشر يتقدمون فى الوحشنة!!" .. يتضح لى دائما أن تعاليم جدتى نفيسة متغلغلة فى أعماقى إذ كنت على الدوام أسلك مع القطط سلوكا حذرا جدا، فطفولتى لا تعترف للقطط بأى خبر سار على الإطلاق، دائما أبدا هى خاطفة المنابات من أيدينا وسارقة فراخ الأرانب والكتاكيت

وكاسرة الأوانى وكابسة النساء الوالدات فى موسم خصوبتها. طوال حياتى السابقة لم يكن بينى وبين القطط أى عمار، لم تكن علاقة عدوانية لكننى لم أكن أرحب بوجودها فى البيت وأستهيف كل من يصادق القطط وهى مشهورة فى الخيال الشعبى بعدم الوفاء تأكل وتنكر ولا تعترف بأى فضل لمن يغمرها به، لكنى لم أحاول إيذاءها على الإطلاق إنما قد أهوشها بمضرب الذباب أو بجرنان مبروم على شكل عصا.. إلى أن دخل بيتنا القط نور، فأدركت الفرق بين قطط الشوارع الشريدة الضالة التى تربت على القنص واللصوصية وصفائح القمامة، والقطط المتحضرة المتعلمة التى تربت على العزة والكرامة فى رغد من نعيم وتحنان مبذول، وفى الحالتين إثبات لمقولة جدتى نفيسة إذ لولا وحشنة الإنسان وخسته ما ضلت كل هاتيك القطط فى الشوارع، فى نفس الوقت لولا تحضره ما تسيد القط نور وتدلل.

العجيب أننى برغم أسفى على تعاسة حظ القطط الضالة لم يتحول موقفى تجاهها إلى شىء من التعاطف، بل صرت منحازا للقط نور ضدها، أتربص بأى قط شوارعى على بسطة سلمنا لأريه مركزه وأزجره بعنف أحيانا قبل أن يستضعف نور ويعتدى عليه أو يستدرجه إلى الخلاء يغريه بالصياعة على الرغم من يقينى العلمى بأن القط الأليف يستحيل أن يفرط فى مكانه بل يدافع عنه إلى حد القتال مع بنى جنسه.. لقد أصبح القط نور صديقا لى بمعنى الكلمة، أصبحت إذا نزلت إلى مكتبى فى الجريدة أسأل عنه بالهاتف، أحيانا هو الذى يرد على التليفون حيث ترفع زوجى السماعة وهو مستلق على صدرها فيهبش فى السماعة يطلق نونوة من فرط التلون الشعورى فى نبراتها أكاد أترجمها إلى أشواق وضحك وبكاء وأنين شكوى واستغاثة. أصبح هو الرجل الثانى فى بيتى بعد زواج العيال ورحيلهم حتى وإن كانوا يتجمعون فى البيت عندى معظم أيام الأسبوع. من دون الأصوات التى يحدثها دوران المفتاح فى كالون الباب يتعرف على صوت مفتاحى، أشعر وأنا أبرم المفتاح فى الكالون بقفزته من على بعد ووقوفه خلف الباب مندمجا

فى نونوة طروبة تحك فى قرار صوته تعطيه نبرات إنسانية صرفة. يدخل ورائى حجرة النوم، يرمقنى إذ أغير ملابسى، يتمسح بساقى فى لطف إن رآنى أدلف إلى الحمام الذى آثرت أن يشاركنى فيه بأن وضعت له قصعة ملآنة بالرمل فحين يشعر بالزنقة ينط من أعلى مكان ويدفع الباب بقدمه ويدخل يقعى فوق الرمل يقضى حاجته ثم يقوم ويروح يهيل عليها الرمل بقدميه حتى يدفنها ثم يخرج. وقد اعتاد أن يشرب شاى العصر معى فى الشرفة، يقعى فوق حافتها ذلك الإقعاء التاريخى الأزلى المخلد فى نقوش الفراعنة بتماثيل خلابة لا حصر لها، لكأنه مكلف بمراقبة الحركة فى الشارع، لكأنه يلقننى درساً فى كيفية التأمل، آه لو أملك صبره وصفاء عينيه وتطامنه إذاً لأقعيت مثله هذه الإقعاءة الحميمة الفاتنة وفتحت كل حواسى وبصرى على هذه الحياة الصاخبة المتدفقة، آه لو أملك مرونته ولياقته فى السير على الحواف، آه لو أملك رقيه وعزة نفسه وميله الفطرى إلى المرح والممازحة والمناكفة والمشاكسة والتنطيط واللف حول نفسه يريد الإمساك بطرف ذيله وبإصرار لا يوقفه إلا انشغاله بشىء مفاجئ.

فى الليل يؤنس وحدتى فى المكتب، أفتقده إذا انشغلت عنه لفترة طويلة دون أن أراه. كثيراً ما أمسح البيت كله شبراً شبراً وأزحف على بطنى ناظرا تحت الكراسى والأسرة والدواليب والنمليات بحثا عنه فلا أجده، ينخلع قلبى وأوقن من اختطافه، حتى إذا ما طلع النهار ووضعت زوجى صينية الفطور على ترابيزة السفرة، أسحب الكرسى من تحتها لأجلس عليه، أفاجأ بسيادته متكورا على نفسه مستغرقاً فى نوم عميق عميق، أسب ديكه وديك الذين خلفوه ثم أزيح الكرسى إلى الداخل وأسحب كرسيا آخر، فما إن أشرع فى تناول الفطور حتى أفاجأ بسيادته قد تسرب من تحت بوز الرخامة البيضاوية وتمطى وأقعى أمامى يتثاءب ويرمقنى من عينين معمصتين فيهما لطف وذكاء وبراءة وتواطؤ حميم على التسامح والأريحية، وإذ يجد نفس المشاعر فى عينى لا يجد بأسا ولا حرجا فى أن يأخذ حمامه أمامى، يروح يلحس فروته فى كل

بقعة من جسده ظهراً لبطن لذيل لعنق للوجه والعينين حتى يلمع بالفعل ويبدو كأنه استحم فى حوض بالصابون المعطر، عندئذ تتسع عيناه ويموء بلهجة ذات معنى فى طلب الطعام.. فى الليل وأنا أحاول الاحتشاد بالمعلومات والخواطر والأرقام والقراءات استعداداً لكتابة مقالى الأسبوعى للجريدة، ما أكاد أعتدل على السكة الصحيحة فى السياق الصحيح بعد طول شطب وتمزيق حتى أراه يناور، يدبر لاقتحامى، يشبط فى رف قريب، يقف على حافته، ينط منه إلى منضدة التليفزيون فى موقعها المواجه للمكتب، يصعد فوق التلفاز، بقفزة سريعة يصير متربعا فوق الورق الذى أكتب عليه، برأسه وكتفيه يزيح يدى عن الورق ويقعى فوق السطور التى كتبتها ثم ينظر فى اللاشىء ثم يحدق فى عينى بنظرات فيها شقاوة وسخرية، يكاد يلكزنى فى عشم وأخوة قائلاً: "سيبك من وجع الدماغ ده ما حدش واخد منها حاجة!"، أكاد أطاوعه لكننى سرعان ما أفزع من انسراب الوقت فأزيحه برفق مرة ثم بخشونة مرات وهو كالصديق الغتيت يأبى إلا أن يفور دمى بهزار ماسخ ليس الوقت وقته، فأحمله بالقوة وألقى به فى حجرة جيهان وأغلق عليه.

على أن هذه الصداقة سرعان ما تصدعت. انتبهت ذات يوم إلى أن مقاعد الأنتريه الكلاسيكى الطراز العزيز على نفسى ونفوس أسرتى، والذى لا يمكن تعويض تنجيده بهذه القماشة بهذه النقشة التى لرصانة جمالها وما فيها من فن فى النقش وفى النسيج معا ترفع من قيمة الأنتريه إلى ما شئت من تقدير.. فوجئت بهذه القماشة وقد صارت بفعل التنتيش الحاد أشبه بالكنافة، ساحت فيها أشكال الرسوم صارت بطشا من ألوان همجية مندلقة فوق بعضها، لكأن سكينا اندك فى قلبى، فأنا من مقدسى الأشياء وهى تعنى بالنسبة لى مشاعر وعلاقات وأزمنة ومعانى ورموزاً كثيرة، بكيت.. جال بخاطرى أن لو كان ابن من أبنائى أو حفيد من أحفادى طعننى فى هذا العزيز على قلبى وشوهه هكذا لكرهته.. يا للفجيعة، كراسى الصالون وكراسى السفرة وغرفة المعيشة كلها قد شوهت.. عندئذ توترت العلاقة بينى وبين نور، أدرك هو أننى

تغيرت نفسيا من جهته، فراح يتمهل قبل أن يقدم على أى فعل. كان مغرما بالتسلق إلى آخر حافة الكتب القريبة من السقف، فتدركه زنقة الغائط، فيقفز قفزة عشوائية يعقبها دوى انفجار، صف من المجلدات قد هوى إلى الأرض كاسحا ما فى طريقه من تحف وطفايات وفازات وأكواب وربما أطفال. تكرر هذا الفزع عدة مرات وتكرر ضربى له بمضرب الذباب، فأصبح يتسلل متدرجا فى القفز خلسة، ثم يتذكر أنه سيعاقب، فيتوقف متوجسا يختلس النظرات إلى فى مراوغة إنسانية كألعبان يريد استغفالى لدرجة أنه يوهمنى بأنه قد صرف النظر إلى أن أسهو عنه، فما إن أفزع فيه حتى ينط مبتعدا. ويبدو أنه كان على يقين من أننى غير جاد فى تهديداتى، فكان هو الآخر يمثل أنه خاف وجرى لكنه ما يلبث حتى يتوقف بعد قفزتين ويستدير محملقا فى عينى لاعقا شواربه بلسانه فيخيل إلى أنه يبتسم ليستدرجنى إلى العفو عنه. فيما مضى كنت أفعل أما اليوم فلا أطيق صبرا، ما إن رأيته ينتش بمخالبه فى لحم الكرسى حتى أمسكت بالمسطرة الحديدية وغافلته بضربة عنيفة جدا، جاءت فوق ظهره المقبب فانحط مبطوشا دائخا يتلوى ثم ما لبث من حلاوة الروح حتى تجمع وقفز مهيضا ثم اختفى.

كرهت نفسى فى الحال. أبدا ما كنت أتصور أن يكون فى داخلى مثل هذه الخسة الغادرة، ظل نور مختفيا تماما لعدة أيام تعذبت فيها أشد إيلاما مما لو كانت الضربة قد أصابتنى أنا، جاءت جيهان فظهر يعوى بصوت يمزق القلب بقسوة. لم يهدأ لى بال، ولم يختف شبح جدتى نفيسة، إلا بعد أن عالجه الطبيب حتى استرد عافيته وحضوره الكامل، إلا شيئا واحدا رفض أن يسترده، صداقتنا، لقد انتهت من جانبه تماما ولم يعد يأمن جانبى ولو لبرهة عابرة، صرت كالموت فى نظره، ما إن يرانى حتى يفزع ويثير دربكة وفوضى فى طريقه إلى الاختباء ثم يظل مختفيا إلى أن أختفى أنا من المحيط الذى يظهر فيه. كان هذا يؤلمنى بل يكاد يقتلنى من فرط الشعور بالضعة حتى اعتقدت أن هذا هو الانتقام العاجل العادل الرادع الذى تقصده جدتى نفيسة، وقد استطبت

استمراءه لبعض الوقت لعله يريحنى من تأنيب الضمير بكونى دفعت الثمن، لكننى لم أحتمل، رجوت ابنتى جيهان أن تأخذ نور وتعيده إلى صاحبه حتى لا يعذبنى أو أعذبه.

اختفى نور من حياتنا، جاء من استطاع معالجة طاقم الأنتريه الذى بدا كأنه قد كبر فى العمر خمسين عاما. لكن المدهش أننى وزوجى بعد مرور ما يقرب من عشر سنوات على طردنا لنور، بدأ الحنين إليه يغزونا، صارت زوجى تذكرنى بحركاته ونوادره، وأذكرها بحواراته الليلية معى، ثم نضحك فى صفاء، فلما لاحظنا أنه بات يمثل لحظات الحميمية فى فراغ أيامنا الراهن أوحت إلى زوجى بأن أسأل عنه ولو من باب الوفاء. شكر الطبيب سر نور الباتع الذى جعلنى أهاتفه على غير توقع ثم أسمعنى صوته فى الهاتف ثم قال فى أريحية: "تحت أمرك إذا عايزه تعال اسهر معايا وخده وأنت ماشى". فتح الرجل باب شقته فدلفت داخلا إلى حضنه مباشرة حيث عانقته فى اشتياق، لحظتها كان القط نور يرقبنا من فوق الكرسى فيما يشبه الشعور بالبلبلة وعدم الفهم، لكنه ما لبث حتى أصابه الهياج، صار كالفأر فى المصيدة يجرى فى كل اتجاه يتعثر متخبطا فى رعبه ثم اختفى.. وإلى أن خرج الرجل يوصلنى إلى المصعد فى منتصف الليل لم يكن نور قد ظهر.. خيل إلى أن المصعد يهبط بى إلى قاع سحيق من الهوان والبؤس. تجاهلت دهشة زوجى من منظرى، سبقتها إلى الداخل جتى لا ترى دموعى الهاطلة، فلما لحقت بى ورأتها غطيت دموعى بابتسامة كسيحة، وقلت بسخرية مفتعلة: الملعون مارضيش ييجى.

يا.. يا للجنون.. باب الدار مفتوح، الأسطى شافعى فوجئ بنا وهو يخطو خارجا من عتبة الدار إلى الحارة، وكانت روحية الابنة الكبرى لمخلوف تجرى نصف عارية إلى السلم الظاهر لنا فى الدهاليز، ثم تتسلقه كل ثلاث درجات فى قفزة واحدة.

العفاريت التى تسكننا

اشتهر الأسطى شافعى أبو السعود - الذى يدير مكنة الطحين الوحيدة فى بلدتنا - بأنه رجل "ديله نجس"، يحتل بطولة أكثر من تسعين فى المائة من حواديت المغامرات الغرامية ونوادر العشق والعشاق فى بلدتنا ونواحيها المتاخمة للبرارى.. وكلها حواديت من فرط غرابتها وكثرتها تكاد تكون محض خيال فى خيال. وقد اعتاد عقلاء البلدة أن يسمعوها بشغف كبير جداً على الرغم من يقينهم بأنها فى مجملها غير قابلة للتصديق وإن كانت مصدر تسلية يداعب خيال الجميع الميالين بالفطرة لسحر هذه المغامرات، ولو بالاستماع، وفى نفس الحال تقرصهم التسلية فى قلوبهم قرصات موجعة إذ لابد أن يمر بخواطرهم عند استجلاء هذه الشائعة أو تلك ذلك الشعور بأن أعراضهم جميعاً قد لا تصبح بمنجاة من التلوث فى ظل انتشار هذه الشائعات التى تتسع يوماً بعد يوم فتجد رواجاً وتشجيعاً وتصديقاً فى معظم الأحيان.

الحاج عبد المجيد يعقوب، الضرير، مؤذن الجامع الكبير، المحترم من شدة ورعه واتساق ظاهره مع باطنه، يمر فى طريقه إلى الجامع بمصطبة مخلوف الطلباوى المتاخمة للميضأة، فيجلس معنا قليلا فى انتظار موعد الأذان، يتجهم كلما سمع نادرة من نوادر الأسطى شافعى، لا تنصاع أذنه وراء المتحدث، لا يميل نحوه للإنصات بشغف وتحفز للمشاركة فى الحكى كما يفعل غيره من سائر الناس، بل يضحك بعمق، يتحول الضحك فى صوته المتحفظ

المكتوم إلى ما يشبه دقات الهاون برنينها العميق المكتوم معا. وبعد أن يفرغ ما فى صدره من ضحك يتلقف أنفاسه وبنبض المرح فى ملامحه الطيبة المبرقشة ببقع من أثر إصابة قديمة بمرض الجدرى، يدق الأرض بعصاه فتتراقص من حولها مسبحته اليسر الطويلة على فتافيت نغم نشوانٍ تصوره حباتها فى اصطدامها بالعصا هبوطا وصعوداً، مردداً: "والله ما يزنى سواكم! لا يرتكب المعصية حقاً إلاكم! يا ناس!. كفوا عن هذه الحواديت والنكت!. أنتم بكل صراحة تنتهكون فيها أعراض ناس يعلم الله وحده إن كانوا زناة حقاً أم أبرياء!".

يداعبه العبد الأسود أبو النوم ـ المعتوق جده من عائلة طلبة الكبير ـ بخفة ظله التى طغت على شخصيته فوضعته بين من لا يقع عليهم الحرج فيما يقولون، إلا أن القوم لهم مصلحة فى رفع الحرج عنه كالبلهاء والأطفال وفاقدى الرشد، إذ إنه كثيراً ما يقول ما يتحرج القوم من قوله صراحة، إنه وهو المرفوع عنه الحرج، يرفع الحرج عنهم بقول ما كانوا يودون قوله لولا الخوف من المسئولية الجنائية الجسيمة. إنهم فى تشجيعهم لـ"أبو النوم" يفتحون ثقباً فى الضمير العام لأهل بلدتنا، تنفذ منه الأحقاد والأضاليل لتحويل دفاف الأمور إلى مسارات تخدم المصالح الشخصية، يتولون التكريس لعدم أهلية أبو النوم والدفاع عنها وعنه بحرارة، إذا ما أراد أحدهم أن يثأر لشرفه أو سمعته أو لكرامته من لسانه الفلتان، فسرعان ما يلتفون حول هذا الأحد يخدرونه يداعبون غروره بأنه هو الأرجح عقلاً والأكبر مقاماً، ولا يصح أن يعمل عقله بعقل هذا الولد عديم التربية الصايع الضايع.. العجيب أن من كان يخادع نفسه فى طلب تهدئة الآخر الثائر وهو فى ضميره قانع بأن من حقه أن يضرب هذا الولد المأفون بالنار، أو حتى الجزمة القديمة، يرى نفسه مقهوراً على الامتثال لتهدئة الآخر له عندما يخوض لسان أبو النوم فى لحمه بنفس الطريقة يسوق العبط على الهبالة على المسكنة عند اللزوم إذا شعر أن غلطة لسانه البشعة قد تعالجها صفعة على وجهه أو ركلة فى

مؤخرته وينتهى الأمر.

يرد أبوالنوم على الحاج عبد المجيد بلهجة تنضح خبثاً ولؤماً: "يا حاج عبد المجيد إن كلاب حارة العزايزة استجارت منه كل ليلة تزفه وهو ينط على سطوح الناس!".

يعرف القاعدون على مصطبة مخلوف الطلباوى اللصيقة بداره ودكانه أن هذا التخيل المسموم ليس من خيال أبو النوم إنما هو نفثات ونبرات مخلوف الطلباوى تاجر الفراخ، يعرفون كذلك أن مخلوف مصيبة كبرى فى العشق والخلبصة، إنه يعتمد فى بيعه على أسواق بلدتنا والبلاد المجاورة ينتقل إليها بالركوبة العفية يتوازن فوقها قفصان كبيران مليئان بالبرابر والبلالين، التى يربيها فى داره بخبرة عائلية موروثة، هو ليس محظوظاً فى تربية الفراخ فحسب، إنما هو محظوظ كذلك فى النساء، وحيث إن تعامله فى الأسواق وفى كل مكان يحصر زبائنه فى دائرة نسائية، ولغة الفقس والتكسير والديوك والشمورت والعتاقى هى لغته الوحيدة فى حياته، ولشدة مرونته وأريحيته فى البيع الشكك لنساء بأعيانهن يمد حبال صبره الطويلة معهن فى الدفع بالأجل، فقد نجح فى أن يكون له فى كلٍ بلدة عشيقات من أرامل ومطلقات وفتيات لعوبات يكسب أموالاً كثيرة يصرف ثلاثة أرباعها على تهيئة مزاجه كل ليلة للمضاجعة مع واحدة أو أكثر فى أكثر من خن وأكثر من خرابة بل وأحياناً فى هديم كنيسة أو ضريح شيخ مهجور، هذا أمر يعرفه كبار القوم فى بلدتنا، منهم من أمسك به متلبساً ذات فجرية، منهم من أدركه ممسوكاً فى إحدى العزب المجاورة، فساعده على النجاة من القتل، ولكن أهل بلدتنا المؤمنين بأن الله حليم ستار يكتمون الخبر فى صدورهم درءاً للفضيحة فكيف بهؤلاء القوم أنفسهم يسكتون عن هذه الشائعات التى تتضخم جاعلة من الأسطى شافعى ثورا هائجاً ومن نساء بلدتنا عاهرات؟! هكذا سأل واحد من العامة من جلاس المصطبة، موجها السؤال إلى الحاج عبد المجيد يعقوب، فابتسم الرجل وبان عليه حرج شديد، لكنه قال: "الحقيقة يا ولدى أننا قوم معطوبون: نقوم بالواجب ثم نفسده

بالمنظرة، نؤدى الفرض ثم ننقضه فى الحال بالخطيئة! نحن قومٍ زائفون مع الأسف نتحلى بالفضائل لنغطى زيفنا! لو كنا نؤمن حقاً بأن الله حليم ستار ما انتشرت هذه الفضائح! الواحد منا يصنع المعروف ويعلنه يمنع فضيحة ويحكى لغيره كيف منعها دون أن يدرى أنه قد صار المصدر الموثوق للفضيحة!".

فى مندرتنا حيث أبى وأعمامى وصحبهم من علية القوم. ينبذون الفضائح لكنهم يؤكدونها ويثبتونها باتخاذهم لها كمدخل واقعى للوعظ، واللوم والتذكير بعقاب الله، يقولون مثلاً إن مخلوف كل خلفته بنات وسوف يقعد لهن ما يرتكبه أبوهن من ذنوب. يقولون كذلك إن مخلوف الطلباوى نجح فى تحويل الأسطى شافعى إلى حدوتة مثيرة يشغل بها البلد، عن فسقه وفجوره، فى نفس الوقت يقول الشيخ عبد المقصود زائر مندرتنا الحاصل على عالمية الأزهر الشريف: "ولكن لماذا لا يكون مخلوف الطلباوى محقاً فى حواديته التى يشيعها عن الأسطى شافعى عن طريق الولد الصايع أبوالنوم؟"، وإذ ينتبه إليه الحضور يمسح لحيته ويستدرك فى هدوء وروية.

"الأسطى شافعى غريب عن بلدتنا وهذا ما يجب أن نضعه فى الاعتبار! ثم إنه ولد حليوة! فتى الجسد! ومن يراه فى ماكينة الطحين مرتديا العفريتة الزرقاء ويمشى مختالاً ووجهه ملطخ ببصمات من شحوم، وشعره الغزير متهدل على جبينه كنجوم السينما!، ينقبض قلبه توجساً! فالولد فعلاً فيه جاذبية للنساء!.. رأيت هذا بعينى، نساء يتملقنه بعضهن يتهارشن فى تقصع بلا حياء! لكن الحق لله الولد مؤدب كل الأدب!".

إذن فمندرتنا أم العقلاء لا تحسم شيئاً ولا تقول رأياً محدداً فى شىء، فينصت الناس إلى ما يدور على مصطبة الطلباوى فيطورونه فى خيالهم مستمتعين باللذة أو بالحقد أو بالتشفى فى ناس أو بالزهو بأنفسهم وحينما أشار أبو النوم إلى كلاب حارة العزايزة تحفز الجميع للاستماع، وكان واضحاً أن الحاج عبد المجيد يعقوب قد فهم أن أبو النوم يرمى بغمزته إلى صبيحة الملاّية زوج خليفة

الأصفر أبو علة المكتوم فى القاعة منذ عشر سنوات كالرميم، مما جعل الكثيرين يطمعون فيها، ولأنهم غير واثقين من قدرة امرأة شابة على العيش بدون رجل طوال عشر سنوات محتفظة بشرفها، فإنهم بخيالهم المريض قد راحوا ينسجون حولها الحواديت، وعلى رأسهم مخلوف الطلباوى نفسه الذى يعلم الجميع أنه اشتغل عليها طويلا، فلم ينل منها غير الصد والتهزىء ومن يومها وهو مصمم على مرمطة سمعتها فى الأرض حتى ترضخ لنزوته الدنيئة.. هدرت ضحكات الحاج يعقوب ثم هتف: "استغفرالله يا عبد الشؤم، لا تكن حمارا يركبه مخلوف وينخسه بمسامير مسمومة!.. كلاب حارة العزايزة أكثر وعيا منكما! تعرف إن الست اللى بالى بالك طيبة وغلبانة، وربنا يقدرها على صيانة عرضها! ثم إنها كلاب منكسرة هى الأخرى لا تهاجم أحداً بل إنها مستعدة لأن تأخذ الزائر من يده وتوصله بنفسها إلى الدار التى يطلبها!".

هكذا تترادف الليالى، من فرط تشابهها، لا نكاد نعرف مواقعها من العدد، ولا مواضع الحواديت منها، فالشائعة سرعان ما تصبح حدوتة، والحدوتة ما تلبث حتى تستقر كأنها واقع قد حدث بالفعل، وليس من السهل محوه من ذاكرة الليالى، حتى بات الأسطى شافعى كاسراً عين جميع الرجال فى بلدتنا لمجرد أن فلاتياً فاسداً كمخلوف الطلباوى قد خلق منه أسطورة تشغل الناس ليمارس هو فسقه وفجوره فى النساء، وفى بيع الفراخ المضروبة. وكنت كمعلم فى مدرسة البلدة الإلزامية أرى فى عيون العيال فى الفصل بذور أسئلة قلقة حول هذا الأسطى، وقد أذهلنى أن سمعت العديد من نكت يرددها التلاميذ عن ثور هائج أطلقه العمدة لكى ينطله على العاهرات تنكيلا برجال البلدة المناهضين له، وفى نفس الوقت يقبض من ورائه أجرا، كل النكت تدور حول هذا المعنى بصور متعددة، ونظراً لخطورة الأمر اجتمعنا بناظر المدرسة وقدمنا شكوى جماعية إلى مباحث المركز، التى اهتمت بالأمر، فجاس رجالها فى بلدتنا عدة أسابيع، انتهت بتأشيرة تقول إنه لا يجوز لها القبض على مواطن وتقديمه للمحاكمة بناء على شائعات لم تثبت

صحتها على الإطلاق، منذ ذلك اليوم كان الأسطى شافعى قد بدأ يستقر تماما فى البلدة ويستأجر بيتا نظيفاً بدلا من المبيتٍ فى عشة الخفير الملحقة بالماكينة، بدأ يستحم ويمشط شعره وبدلاً من العفريتة الزرقاء يلبس قميصاً وبنطلوناً نظيفين كالأفندية، يتجول فى شوارع بلدتنا فى أوقات فراغه، وأيام راحته الأسبوعية، انضم شكلاً إلى الأعيان من كبار الملاك والمشايخ والمعلمين وطبيب الوحدة الصحية وباشكاتبها، بل كان يتفوق عليهم جميعاً فى أدبه، حلاوة لسانة، لباقته، أناقته ونظافته الدائمة لدرجة أن عائلات كثيرة لم يكن لديها مانع من الترحيب به إن هو تقدم لخطبة إحدى بناتها، إلا أنه بعد ذلك بقليل لم يعد محتاجاً لأن يتقدم لأحد، لقد فوجئ بأن جميلات كثيرات أصبحن ينظرن إليه نظرتهن لفارس الأحلام الفتى الأسطورى، وأن عاهرات كثيرات يتمسحن به، ويدبرن معه لقاءات سرية فى بيته الذى استأجره من بابه فى مدخل البلدة، محاطا بظلام وكان سمار الليالى من أمثالنا يرون العجب، والبعض منا كان يشكو لغيره فيفاجأ بأن غيره قد رأى ما هو أعجب.

شيئاً فشيئاً بدأ الأسطى شافعى يجاهر بفروسيته، يسلم على النساء العاهرات والفتيات فى الشارع وفى مكنة الطحين دونما حرج، يغازلهن عيانا بيانا، وقد يمد يده ليداعب فى جرأة، فلا يجد منهن صداً ولا من الرجال استنكاراً أو رفضا بل تبلدا، ربما خوفا من العمدة الذى يهددهم بأنه لو فرط فى هذا الأسطى تتوقف المكنة وتضطر البلدة للسفر إلى بلاد بعيدة تحمل طحينها، وربما لأن الأمر أصبح اعتياديا طبيعياً غير لافت للنظر بل أن يثير حفيظة أحد، أو نخوة أحد وذات ليلة كنا جالسين على مصطبة مخلوف الطلباوى ننتظر صوت أذان الفجر، فإذا بنا نسمع صواتا مفزوعا، ما لبث حتى انكتم فى الحال، كنا ثلاثة فحسب مخلوف وأبو النوم وأنا، رحنا نتلفت بحثا عن مصدر الصوت، كانت نظرات مخلوف تحوم حول دار ابن عمه المهجورة، منذ سفره للعمل فى مصنع للكبريت بالإسكندرية الدار لصق الدار، السطحان متشابكان

متصلان، وإن كان باب دار ابن العم يفتح على حارة خلفية سد، ليس فيها من أبواب سواه، وبناته كثيرا ما يذاكرن فى هذه الدار المهجورة، يكفى أن يتخطى الواحد السطح إلى السطح، وينزل من فتحة السلم إلى داخل الدار يبدو أن مخلوفا قد سمع صوتا يشبه صوت إزاحة سقاطة الباب من الداخل، فانتفض قائماً يهرول، هرولنا وراءه إلى الحارة السد الخلفية.. يا.. يا للجنون.. باب الدار مفتوح، الأسطى شافعى فوجئ بنا وهو يخطو خارجا من عتبة الدار إلى الحارة، وكانت روحية الابنة الكبرى لمخلوف تجرى نصف عارية إلى السلم الظاهر لنا فى الدهاليز، ثم تتسلقه كل ثلاث درجات فى قفزة واحدة.

حينما أفقنا من الذهول واسترد مخلوف عقله ورشده كان الأسطى شافعى قد نجا من التلبس واختفى أغلقت بنفسى باب الدار، سحبت مخلوف عائداً به إلى المصطبة وأنا أكتم فمه بيدى كتما للفضيحة قبل إعلانها، كان مخلوف يرتعش ويبكى ويحاول شق هدومه، وأنا لا أكف عن تحذيره من أن يراه المصلون على هذا النحو راح ينظر من تحت لتحت إلى أبو النوم فى توجس ثم قال له خلال البكاء فى جدية مخيفة.

- "لو فتحت بقك بكلمة على الطلاق بالتلاتة أقتلك!"

لكن الذهول كان قد أغلق فم أبو النوم ربما إلى الأبد، قمنا فتوضأنا وصلينا الفجر حاضرا فى الجامع الكبير، ثم جررت مخلوف إلى المصطبة حتى لا يثير فى داره فزعا لا تحمد عقباه، ظللنا مرمين على المصطبة غارقين فى صمت مطبق، وشرود حتى طلعت الشمس، وتمدد أبو النوم فى مطرحه فاستغرق فى النوم وفجأة زفر مخلوف من قعر بطنه ثم استغفر مصفقا كفا على كف ثم التفت لى قائلا وقد بدا على وجهه أنه على مشارف الجنون.

- "اللى شفناه ده حصل فعلا يا سيد افندى؟ ولا كان حدوتة من حواديته، واتهيأ لنا إنها حصلت قدامنا!؟ وحياة والدك تنورنى يا سيد افندى قبل ما يجينى لطف!"

لويت بوزى فى أسف.. ذلك أننى كنت واقعاً فى نفس الالتباس.

"كيف بحق الله احتمل كل هذا المشوار؟.. لكأنه يتعرف الآن على شخصيته من أول وجديد؛ خرج من صالون الحلاق فتى مشدود الملامح بتسريحة شعره الشبابية على الدوام؛ العطر الثمين يفوح من ثنايا الجاكت الكحلى الذى سوف يتماهى مع التايير الكحلى.."

الخروج من المحارة

يرن الهاتف عشرات المرات فى بيته طوال النهار والليل فلا يعبأ به؛ ليقينه أن من يهمه الرد عليهم سيطلبونه على هاتفه المحمول؛ لكنه فى ذلك اليوم شعر بأن رنين الهاتف يقصده هو على وجه التحديد. لحظتها كان جالساً إلى مكتبه مستغرقاً فى مراجعة رسالة للدكتوراه كتبها تحت إشرافه أحد طلابه فى كلية طب القصر العينى.. خفق قلبه؛ توجس؛ الرنين يتكرر بإلحاح متواصل يشير بأن أحداً لا يوجد جنب الهاتف فى غرفة المعيشة. تذكر أمه فى البلد راقدة تحت عُمر يفوق الثمانين عاماً؛ آخر مرة زار البلد كانت منذ شهر مضى؛ دخل ليسلم عليها قبل سفره؛ أحاطت يده بيديها قائلة بصعوبة شديدة؛ يا عالم إن كنت حاشوفك تانى ولاّ... لم تشأ إكمال الجملة؛ فانحنى عليها وغمرها بقبلاته.. شعر بلسعة تأنيب لإبطائه فى رفع السماعة الفرعية المثبتة فى ضلع الرف الخشبى للمكتبة على يساره لعله يؤجل مواجهة ما يحتمل أن يكون خبراً قأسياً. ما أن مد يده لرفع السماعة حتى سكت الرنين؛ الغيظ سكين إندب فى صدره؛ لكنه نسى الألم حين جاءه صوت البت فتحية الشغالة ترد من سماعة المطبخ بلهجتها الفلاحية: أقول له مين حضرتك؛ عارفة حضرتك من بلدنا!؛ رمى بالقلم الرصاص فى الأخدود الفاصل بين الصفحات تأهب لتلقى خبر فاجع قد يؤدى إلى تأجيل مناقشة هذه الرسالة التعسة التى تأجلت مناقشتها عدة مرات حتى تشاءم منها كلما قطع شوطاً فى

مراجعتها برغم استمتاعه الشخصى بجهد الباحث وأسلوبه ومنهجيته؛ صاح بصوت مكروب: مين يا فتحية اخلصى؟ فإذا بفتحية صارت أمامه تنحنى لتضع فنجان القهوة الذى نسى أنه طلبه منها؛ بيدها الأخرى قدمت له السماعة: ست تهانى هانم يا سيدى! ؛ شد السماعة بعنف: قلت ميت مرة بلاش زفت سيدى دى! ما تعرفيش تقولى يا دكتور؟.

صوت تهانى يتساقط من السماعة قبل وضعها على أذنه؛ فى نبرة حميمية باسمة عميقة الرنين بلمسة من سخرية محببة: لسه زى ما أنت بتؤمن بالعدالة والمساواة؟ بشرة خير يجب الثبات على المبدأ مع إن كل المبادئ إنضربت واتمرمط بيها الأرض!.

بين لذة الإستنامة لهذا الصوت وتأجيل التفكير فيما وراء اسم صاحبته لمزيد من الاستمتاع بمثل هذه النافورة العاطفية السخنة التى كانت أضمحلت من حياته طوال ما يقرب من نصف قرن من الزمان؛ وبين اقتراب وجهها من السفور فى مخيلته بجماله ورقة تقاطيعه السهتانة التنبئية بلوحة الموناليزا، كانت شخصيته التى يشعر بأنها الحقيقية الأصيلة فيه، والتى كان واثقاً أنها تكاد تكون قد انطمست منذ أن دخل فى قناع الأكاديمى الأستاذ الجهبذ الزميل للجهابذة فى الجمعيات والمحافل الطبية العالمية عبر رحلة كفاح مضنية من دكتور إلى أستاذ إلى رئيس قسم فعميد فنائب رئيس الجامعة ناهيك عن شهرة عريضة جدا فى أسواق المرض وكبريات المستشفيات فاقت شهرة عادل إمام وعمر الشريف فى الفن؛ ومن يوم إلى يوم تزداد سطوة هذه الشخصية الأكاديمية العملية العامة؛ يزداد سُمك الجدران الداخلية التى تتقلص فى سجنها شخصيته النقية المرحة الباحثة عن قيم وأمثال اتضح له مبكراً أنها مجرد يوتوبيا من الأحلام عصية على التطبيق فى أى ظرف فى أى مكان.. بقى مستسلماً لأصداء الصوت الأنثوى الهادر قد أنضجته السنون واخصبت نبراته مشاعر من تجارب هائلة فازدادت أشعته القديمة نفوذا إلى داخله؛ إنه صوت داخلى فى نسيجه الإنسانى والعاطفى منذ أن كان طفلا فى السادسة من

عمره يبكى ويصرخ حتى يسمحوا له بحمل بنت الجيران الجميلة كاللعبة فكانوا يُربعونه ويضعون الطفلة الوليدة على حجره ويتفرجون عليه وهو يقلد أمه فى هز ركبتيها لتهشيك الأطفال ويُصدر أصواتاً تلهيها عن البكاء فمن عجب أنها كانت تكف عن البكاء فعلا وتحملق فى وجهه بعينين باسمتين.. صوتها فى الهاتف نجح فى تكسير حوائط سجن القناع؛ اندفعت من القمقم شخصية كانت ذات يوم بعيد خفيفة الظل إلى حد الشهرة أينما حلت؛ بل هى السبب فى هذا الحب الذى يلقاه فى كل مكان إذ إنها تبرق فى الأزمات وفى المواقف الصعبة فتقنع الجميع بمدى أصالته وطيبة قلبه ونقاء سريرته؛ هذه الشخصية المرحة كانت مع ذلك مصدر خوف وهلع من عائلته الموسرة ومنه أيضاً على نفسه، من أن تستفحل خفة ظله فيتحول إلى مهرج، على الأقل سيستهزئ به الناس ويُفقد هيبته كدكتور وأستاذ يجب أن يكون مثالاً وقدوة فى الاحترام والرصانة والجدية.

فى نزق حميم نط المهرج القديم، الطالب بمدرسة طنطا الثانوية الذى يقضى الإجازة الصيفية فى بلدته المنشأة الصغرى.. هتف من قلب صفاء اليقين، قلب عاشق هاجه وجع قديم: تهاااانى! مش معقول!؛ لكن المهرج المرح سرعان ما ناء بثقل الوجع القديم فحبطت مشاعره المتدفقة وتاهت فى تلافيف المشهد الذى كان نبعاً للألم: فور تخرجه فى الجامعة تقدم لخطبتها؛ أبوها الحاج أنيس تلاءم، قال إن أهالى البلدة كلهم يعرفون قصة حب مأمون شافعى لتهانى أنيس بل إن هناك من ألف الأغانى والمواويل فى حبهما ولهذا بالتحديد فإنه يعتذر عن قبول الزواج لأن فى قبوله تسوىء لسمعة البنت وسمعة الأهلين على السواء، سيتصور الناس أننا رضينا بالزواج ستراً لفضيحة! كان منطقه غبياً ولكنه كان أغبى، إتضح انه ينوى تزويجها من ابن عم لها معار فى دولة الكويت بأموال طائلة؛ وقد تم الزواج بالفعل فى غضون أشهر قليلة حيث سافرت تهانى إلى الكويت واختفت من حياته تماماً، وطوال الأربعين عاماً الماضية كانت تبلغه بعض أخبارها، من قبيل أن

زوجها مات دون أن ينجب وأنها لم تفكر فى الزواج بعده، آخر ما سمعه عنها أنها عادت إلى مصر وتفكر فى مشروع استثمارى مربح..

حينما انتبه إلى أن سلك التليفون يكاد يقلب فنجان القهوة كانت تهانى لا تزال تتحدث بصوت خافت مسترخ، ومن حين لآخر تقطع الحديث هاتفة: ألو فيرد: معاكى. رشف القهوة دفعة واحدة ثم تلمظ وأشعل سيجارة؛ إنتبه إلى أنها تتحدث عن الشقة اللقطة التى حصلت عليها فى حى شبرا حيث أقاربها وأخواتها يسكنّ فى نفس العمارة مع أزواجهن من كبار تجار شبرا، وأنها لم يعد يشغلها شىء فى الدنيا سوى مطلب واحد أن تراه فوراً وبفارغ الصبر ليطفئ أشتياقاً تشتعل ناره طوال أربعين عاماً. عاد الفتى المرح يهتف مزهوا مغتبطاً: قوليلى فين وأنا أجيلك فوراً!. قالت بأنثوية عريقة منشوقة: تعالى خدنى بعربيتك من شبرا! ولما تتقابل نشوف حنقعد فين وحنعمل إيه! الدنيا ليست تسعه من الفرحة، سيطرت شخصية الفتى المرح الشهوان للاشتياق إستردت صفاءها وأريحيتها: فين فى شبرا؟ وصفت له ميدان الخازندار، حددت اسم المقهى الشعبى الكائن فى صدر الميدان، إذ إن العمارة فى مواجهة المقهى فإن جلس على رصيفها سوف يراها وهى خارجة من باب العمارة لتعبر الميدان وتمر من أمام المقهى رائحة جائية مرتين وتلك هى العلامة فوق أنها سترتدى تاييرا كحلى اللون.

إستحلى المغامرة، استيقظ الحب كاملاً، يا للغرابة حقاً، أبداً أبداً لم يعش مثل اللحظة البديعة من قبل: أن يتواعد مع الحبيب على لقاء؛ يا لها من مشاعر طازجة خلت منها حياته طوال أربعين عاماً، فى الصباح تجنب النظر إلى كل من يلتقيه ممن حوله فى البيت؛ نسى أنه جد لخمسة عشر حفيداً من ثلاث بنات وولدين أنجبهم وانكب على العمل من أجلهم كالثور المعلق فى ساقيتين: العمل فى الجامعة بغير هوادة لتحصيل الشهادات والألقاب والأوسمة العلمية، وساقية كسب المال الوفير من عيادات ومستشفيات لا تهمد.. لم يعش لحظة واحدة لنفسه، كيف بحق الله

احتمل كل هذا المشوار؟.. لكأنه يتعرف الآن على شخصيته من أول وجديد؛ خرج من صالون الحلاق فتى مشدود الملامح بتسريحة شعره الشبابية على الدوام؛ العطر الثمين يفوح من ثنايا الجاكت الكحلى الذى سوف يتماهى مع التايير الكحلى..

ركن سيارته فى الميدان وجلس على رصيف المقهى بين الناس، راح يترقب باب العمارة، ما أكثر من خرجوا ودخلوا إلا لابسة تايير كحلى. فات الموعد بساعة كاملة، شعوره بالسخف يقاوم الشعور بالملل؛ وفيما هو يهم بالانصراف لمح عجوز كركوبة تتلكأ فى سيرها أمام الرصيف، التايير الذى ترتديه كالح أسود قاتم، لكن قلبه انتفض حينما جاء التايير تحت ضوء الشمس فشعت كحليته بوضوح؛ هل يمكن أن تكون هى تهانى وإن هى إلا متسولة مقوسة القامة. ها هى ذى تعود محاولة تصدير وجهها نحوه؛ لله ما أقبحه، تجاعيد غائرة متجاورة كأنه طبق من الجنبرى، ليس ثمة ملامح، لم يقو على النظر فيه فحوّل وجهه بعيداً.. ركب سيارته محتميا بزجاجها الحاجب، وشعر برعشة فى يديه وقدميه مع ضيق فى التنفس استمر لدقائق، قرر أن يعرض نفسه على طبيب، لكنه سرعان ما تماسك، أدار المحرك، وجهاز التكييف، ومحطة القرآن الكريم، ليدخل شيئاً فشيئاً فى المحارة السميكة، فى القناع الذى كانه منذ ساعات قليلة مضت؛ ما لبث حتى استعاده كأن شيئاً لم يكن؛ إلا أنه طوال الطريق انتابه ضحك هيستيرى عنيد لم يستطع إيقافه على الإطلاق، حتى وهو فى المصعد، حتى وهو يخلع ثيابه فى حجرة نومه ويعود إلى مراجعة الرسالة صائحاً: القهوة يا فتحية.

"أمه نجحت فى التقاط وظيفة سكرتيرة لأحد أثرياء الانفتاح بمرتب لا بأس به وفّرت له نفقات الدراسة إلا أنها تقضى النهار كله وبعض الليل فى شغلها مطمئنة إلى أن وائل فى رعايتنا.."

الثياب العارية!

كنا فى رحلة عمل إلى ألمانيا، حصلنا فيها على بدلات سفر مجزية وشاركنا فى ندوات اتضح أنهم يدفعون عنها أجرا للمتحدثين فحصلنا بذلك على مكافآت لم تكن فى الحسبان، عندئذ بدأت أنظارنا تتجه إلى محال الملابس الكبيرة التى تبيع الماركات الشهيرة التى نستطيع أن نفخر بارتدائها فى مصر، زميلنا إسماعيل الدهشان مغرم بالمعاطف، بجرأة كبيرة اقتحم المعرض الفخم وأشار إلى معطف فى الفاترينة يطلب معرفة ثمنه، فإذا بالثمن - إذا ما ترجم إلى عملتنا المحلية - يزيد على عشرين ألفا من الجنيه المصرى، المبلغ أذهلنى، يعنى لو حسبت أثمان جميع البدل والجواكت والقمصان والأحذية التى اشتريتها طوال حياتى فلن تصل إلى هذا المبلغ الباهظ المجنون. قال إسماعيل ليغرينى:

"طول عمرى نفسى فيه وربنا أعطانا فلوس لم تكن فى حسابنا.. يعنى رزقه جاء.. فلماذا أحرم نفسى من شئ تمنيته.. ويا أخى فلنعتبر أن هذه الفلوس لم تجئ من الأساس!"

لم اقتنع بكلامه، لكننى بعد عودتنا إلى الفندق رأيت إسماعيل وقد لبس هذا المعطف ونزل إلى "الريسيبشن" ينتظرنا كى نفكر فى سهرة كبيسة نودع بها ألمانيا قبل عودتنا إلى القاهرة مساء غد.. جن جنونى، المعطف احتوى جسد إسماعيل فحوّله إلى شخص آخر تماما، إلى لورد إنجليزى شديد المهابة والأناقة والجمال، ناهيك عن الدفء الذى يشع من القماشة الأصيلة السخية ذات الرائحة

الفواحة المنعشة، عندئذ أدركت لماذا هو باهظ الثمن، قدرت أيضا أنه يساوى هذا المبلغ ليس فى صوفه وحرير بطانته ورقى تفصيله وجمال حياكته فحسب وإنما إلى ذلك فى قيمته الاجتماعية والجمالية وفى الأبهة التى يضفيها المعطف على لابسه، يمنحه شرفا طبقيا تاريخيا، يمنحه شعورا بالعراقة وبالسيادة، كما أنه ليس يبلى على الإطلاق بل يظل دائما جديدا يستعصى على الهوان.. وهكذا ضعفت أمامه وقررت شراءه، اصطحبت إسماعيل الدهشان وذهبنا إلى المحل.

دخلت لأقيسه فى دروة مبطنة بالمرايا، لم أجد نفسى فى واحدة منها، تداعت فى ناظرى صور كثيفة من مشهد يسكننى منذ أيام الصبا المبكر وأراه شاخصا كلما هممت بشراء ثوب جديد ذى قيمة: تلميذا كنت فى السنة الأولى الإعدادية، نسكن فى شقة فى الطابق الرابع فى عمارة فى حى الدقى. أبى كان رساما فى مصلحة الآثار، ورساما فى ملبسه أيضا، بذوقه الرفيع فى التعامل مع الألوان كانت ملابسه البسيطة تبدو ثمينة محترمة.. على العكس منه كان جارنا شريف بك الذى منح لقب البكوية من أصدقائه ومعارفه بحكم اعتنائه الشديد بمظهره، إنه مهندس زراعى ولكنه موظف كبير بحديقة الحيوان، ثم إنه صاحب هذه العمارة التى نسكن فى شقة منها، كانت تدر عليه دخلا شهريا محترما يحقق له ولزوجه وولدهما الوحيد رغدا من العيش على حد وصفه، لكن جمال عبد الناصر - سامحه الله - قام بتخفيض إيجارات المساكن عدة مرات فهبط إيراد العمارة كلها إلى ما يساوى إيجار شقة واحدة، مما أصاب الرجل بحزن واكتئاب جعله يعيش بقية عمره بنفس ثيابه القديمة قائلا إنه يسكن فيها بالإيجار، يقصد الغسيل والمكوى والرفا.. زوجته كانت أصغر منه بخمسة وعشرين عاما وكانت جميلة كفاتنات السينما.. كثيرا ما كنت أضبطه مع أبى فى حديث هامس يرتفقان سور البلكونة حيث إن بلكونة شقتنا لصق بلكونة شقته لا يفصل بينهما سوى نصف جدار يسهل على أى طفل أن يتسلقه إذا وقف فوق كرسى، أراهما يتقاربان حتى ليلتصق الكتف

بالكتف والجدار الفاصل تحت إبطيهما، أسمع أبى يعطيه بعض الوصفات المجربة فى أمور الباه، اسمع شريف بك وهو يصف نتائج وصفة سابقة أنعشته بشكل لم يتكرر، أسمع شكواه المتكررة من ضيق ذات اليد وتكاثر هموم الدنيا.. أمى - ولا أدرى كيف - تلتقط بعض مقتطفات من شواهد الكلام تفسر غموضها، وحينما يأوى أبى إلى حجرة مكتبه تلحقه بفنجان القهوة وتعلق بقولها إن شريف بك وزوجه الغندورة من بره ها الله ها الله ومن جوه يعلم الله! كلاهما أقرع ونزهى! هو يلبس المستورد ويمسك المنشة وهى تلبس فرو الثعالب وتمسك بمروحة الليدى وتستلف منى باكو شاى وأنبوبة البوتاجاز الاحتياطى، ثم تضيف باشمئزاز: جاتها نيلة عليها وعلى أمها نفسها مفتوحة على طول لا تحط فى عينيها حصوة ملح وترحم الرجل الهفتان. لكن هذا الرجل الهفتان وقع ذات ليلة فلم يقم، مات بالسكتة القلبية عن عمر يقارب الخمسين عاما فحسب.. ابنه وائل عمره آنذاك عشر سنوات، زميلى فى فصل واحد فى نفس المدرسة نروح معا ونعود معا، ونذاكر معا.. أصبح يتيما أصبح يقاسمنى الكثير من أشيائى.. تعلمت كيف نختصر الطريق إلى إحدى الشقتين، اكتسبنا دربة ورشاقة فى القفز على الجدار النصفى الفاصل بين البلكونتين لنصير هنا أو ها هنا كيفما يحلو لنا.. أمه نجحت فى التقاط وظيفة سكرتيرة لأحد أثرياء الانفتاح بمرتب لا بأس به وفّرت له نفقات الدراسة إلا أنها تقضى النهار كله وبعض الليل فى شغلها مطمئنة إلى أن وائل فى رعايتنا.. على أن أمى بدأت تلاحظ أن رجلا يتردد على شقة جارتنا الأرملة قيل إنه رجل الأعمال الذى تعمل هى سكرتيرة له وأنه قد تكفل برعاية ولدها ورعايتها نظرا لأنه كان من أعز أصدقاء المرحوم.. بالفعل بدأت الفلوس تكثر فى جيب وائل، بدأت كلمة "عمو" تتردد بكثرة على لسانه إذ إن مستوى ملابسه قد بدأ يرتفع وتظهر عليه ملبوسات لا نراها إلا فى الإعلانات أو على أجساد الفنانين وأبناء الأثرياء ، إلى أن ظهر ذات يوم - وكنا فى السنة الأولى الإعدادية - مرتديا "جاكيت" من الشمواه الأصلى بلون وردى، كان فرجة

المدرسة بأكملها من التلاميذ إلى المعلمين والفراشين ما من واحد منهم إلا وسأله بإعجاب شديد ـ منين جبته يا وائل؟! جميعهم ـ أقصد الأصدقاء ـ أجمعوا على أن ثمنه بضعة آلاف من الجنيهات خاصة أن صدره وياقته وأكمامه مزدانة بشرائح من جلد الغزال الأحمر. كان وائل إذا أقفل أزراره فوق الفانلة الصوف "أم نصف رقبة" صار من علية القوم، وإذا تركها مفتوحة على قميص بياقة مفتوحة صار كنجم سينمائى تخطب وده الفتيات باعتباره ابنا لأحد كبار الأثرياء.. جميعنا حسدناه على هذا "الجاكيت"، أنا شخصيا كنت أرى فى المنام أننى قد ارتديته لا أدرى كيف ولكننى ذهبت به إلى المدرسة مزهوا فخورا وكان ما يشغلنى لحظتها أن يقف وائل بجوارى فى طابور الصباح لكى يرى الجميع أن الجاكيت ملكى ولم أستلفه من وائل.. إلى أن دهمنى ذلك المشهد المروع: كنا عائدين من المدرسة يوم خميس حينما أخبرنى وائل مزهوا بأن "عمو" قد عزمه على السينما حفلة الثالثة إلى السادسة مساء وها هى ذى التذكرة، وقال إنه سيخرج من السينما ويجىء لى فى البيت لأن أمه ستتأخر الليلة فى الشغل بسبب أعمال الجرد السنوى، ذهب هو إلى السينما وعدت أنا إلى البيت، بعد الغداء دخلت أمى ورائى حجرتى قائلة فى نبرة كالفجيعة إن جارتنا أم وائل يبدو أنها تركت حنفية الحمام مفتوحة على آخرها، سحبتنى من يدى إلى حمامنا وأسمعتنى خرير الماء المتدفق فى ضجيج مخيف يوهم بأن الشقة زمانها غرقت ـ الواجب إذن ـ معلهش يا ابنى خدمة لجارتنا اللى فى شغلها قبل الميه ما تزحف علينا ـ أن أقفز فوق الجدار الفاصل بين البلكونتين إلى شقة وائل وأغلق الحنفية وبالمرة أتمم على جميع الحنفيات وأكباس الكهرباء. وقد حدث فى لمح البصر، صرت داخل الشقة فى خفة القط، دخلت الصالة جاءنى صوت آخر، ونين مروحة فى حجرة النوم يتخلله صوت المطربة صباح فى محطة الراديو تغنى يانا يانا، صوتها والموسيقى يذوبان فى أصوات همهمة ولهاث وأزيز وهزهزة.. رجف قلبى كاد يتوقف، مشيت على أطراف أصابعى إلى الحمام، الحنفية مفتوحة على الحوض ـ البانيو ـ

والحوض مسدود بجلدته وإذن فهو مقصود، تركتها عدت إلى الصالة باب حجرة النوم موارب، ياللـ.. العفاريت .. أم وائل عريانة تماما، مفسوخة مطوية تحت جسد عار ضخم هو جسد "عمو"، الاثنان فى غيبوبة النشوة.. تسمرت فى وقفتى غير قادر على التصرف، كنت بدورى مفسوخا بين اللذة بحب الاستطلاع كفرصة ثمينة نادرة، وبين الحياء والمبادرة بالمغادرة، غلبنى شيطان اللذة، فعلتها على نفسى واقفا دون أن يشعر بى أحد، ثم انسللت عائدا كطائر أبى قردان.. خافت أمى من ارتعادى، العجيب أنها اكتفت برؤيتى فلم تسألنى عن أى شىء ويبدو أنها حدست ما حدث، لكنها ظلت ترقب باب أم وائل حيث تأكدت مما توقعته، ومن يومها لم تعد أم وائل جارتنا وإن بقيت ملاصقة لنا فى المسكن، وانقطعت صلتى بوائل، وأصبح جسدى يقشعر أمام الملابس الفاخرة الثمينة.. ما إن أقع فى هواها حتى أنفر منها..

طويت المعطف وتركته بين يدى البائع كأننى أتخلص من رجس شيطانى، ثم سارعت فاعتذرت للبائع بأننى نسيت نقودى فى الفندق، كان الموقف مضحكا بالفعل كما وصفه إسماعيل، فاضطررت أن أحكى له أصل السبب على سبيل التفكه، فقال ساخرا: ألهذا تكره الملابس الثمينة اللافتة للنظر؟! .. قلت لا ولكنها ارتبطت فى شعورى بالعار! كل ثوب ثمين لافت للنظر غير متناسب مع وضع لابسه قد يكون وراءه شىء ما من الدنس! قال: ما هذا الهراء يا رجل؟! أكل من لبس ثوبا ثمينا لافتا تلحقه هذه التهمة الظالمة ضيقة الأفق؟! قلت: لا بالطبع ولكن حين تشعر أن الثوب أرفع قيمة من لابسه.. قاطعنى ساخرا.. بسيطة نحترم الثوب ونحتقر لابسه.. قلت أما أنا فأحتقر الثوب ولابسه معا. قال ساخرا: الأفضل أن نمشى عرايا مثل أجدادنا الأوائل. قلت: الأفضل أن يلبس كل واحد ثوبه الطبيعى الملائم له والمتسق عليه.. قال: يا عم بطل فلسفة! ولكزنى واضعا يديه فى جيبى المعطف متقمصا شخصية لورد يمشى مكللا بالنصر. فى حين تتصاعد ضحكاتنا السوقية البذيئة وتلغمط أصداؤها رصيف هذا الشارع الجميل من شوارع برلين.

درءاً لوقف الحال نزل يتجول في أروقة الإذاعة لعله يجد منفذا إلى إصلاح ما قد يكون قد فسد من علاقة. فوجئ بجميع الوجوه تزوّر عنه، العيون تمنع نفسها عن رؤيته. ينقر على باب حجرة من حجرات المخرجين قائلاً صباح الخير: تنكفئ الرءوس على الأوراق دونما رد.

البلد البعيد

حينما دلف الممثل الشاب ضياء عبد البديع داخل إستديو تسجيلات الإذاعة فى شارع علوى لأول مرة كانت بهجة التفاؤل المفعم بالأمل المشرق فى المستقبل المنظور، تحيط به من كل ناحية، حتى الأجهزة الصماء من الميكروفون إلى شريط التسجيل كلها بدت له كأنها تشارك فى الاحتفاء به كنجم يبدأ الآن سلم الصعود بسلامة، تليق بموهبته التى شهد لها جميع أساتذته فى معهد الفنون المسرحية ومنحوه لقب الأول بامتياز طوال سنى الدراسة، ورشحوه لمخرجى المسرح والسينما والإذاعة بحماسة تجاوبت معها الصحافة الفنية، ففى زمن قليل، وقبل تخرجه فى المعهد بأكثر من عامين باتت صورته منتشرة مألوفة بين عواميد الأخبار، وفى أماكن بارزة بعناوين كبيرة تبشر بقدومه بطلا للفيلم الفلانى والمسرحية الفلانية، وذلك فى أعقاب قيامه ببطولة ثانية لفيلم سينمائى كبير، لمخرج أكبر، لم يستطع أن يتألق فيه كما ينبغى نظرا لحصاره بين إشعاع أربعة من كبار النجوم استأثروا بكل الأحداث فسرقوا منه الكاميرا طوال الفيلم، إلا أنه ترك انطباعا جيداً جداً فى قلوب الجماهير التى توقعت له صولات وجولات على شاشة السينما فى القريب العاجل، سيما أن وجهه تحفة فنية متسقة بذوق إلهى غاية فى الجمال، من أنف رومانى شامخ، إلى عينين مصريتين دافئتين، إلى شعر غزير متهدل فى غير ابتذال على جبهة كفحل الرمان، إلى سالفين واصلين إلى تخوم كرسى

الخدين، وحنك مفوه واسع كخيال زورق بعيد.

الأفق أمامه كان مشرقا حتى وإن كان مستقبله المرئى لا يزال مجرد مشاريع فنية يقترحها أو يفكر فيها آخرون فى الحقل السينمائى بقطاعيه العام والخاص، ثم إنه مرتبط الآن بإجراء تدريبات يومية على بطولة مسرحية شكسبير الشهيرة "هاملت"، التى سيقدمها المسرح القومى فى موسمه الشتوى القادم على الأبواب، وسوف يلعب هو - طبعا - دور هاملت، فإلى أن يحين موعد العرض، أو يدخل أحد المشاريع السينمائية حيز التنفيذ فإن الإذاعة هى الميدان المفتوح أمامه يومياً للعب بطولات إذاعية متنوعة فى مسلسلات شهرية وسباعيات وخماسيات وسهرات درامية، إن صوته شديد المرونة فى الميكروفون، ولهذا فالإقبال عليه أصبح لافتا للأنظار فى الصحافة الفنية، يتزايد الإقبال عليه بصفة خاصة من مخرجى البرنامج الثانى حيث المسرحيات العالمية المترجمة تحتاج لأمثاله من دارسى قواعد اللغة العربية جيداً إلى جانب قدراته التمثيلية المتنوعة.

لترابيزة التدريبات والمراجعات التى تجمع المخرج بممثليه عند توزيع الأدوار وتدوين البيانات المطلوبة، غرفة خاصة فى نادى الإذاعة المقام فوق سطح عمارة تحتل ناصيتى شارعى علوى والشريفين، وكان ضياء عبد البديع يحب الخروج من هذه الغرفة إلى الردهة المستطيلة مفتوحة النوافذ على شرفة تحيط بالنادى من جميع الجهات، حيث تتراص المناضد والكراسى، تتخللها أركان بمقاعد جلدية مرحرحة، يحلو له الجلوس فى الركن البحرى المنعش صيفا بهوائه العاصف أحيانا، لمدة ربع ساعة يراجع دوره ويقطّع الجمل حسب الإيقاع الذى سيؤدى به، إلى أن يحين موعد دخوله على التسجيل فى مبنى مقابل بشارع علوى دقيقة بالمصعد إلى الأرض، دقيقة فى عبور الحارة إلى مبنى الاستديو، دقيقة فى صعود سلمه الواقف، فى الدقيقة الرابعة أو الخامسة يكون قد تم تسريبه إلى داخل إستديو التسجيل جاهزا للدخول بصوته إلى المسمع القادم كان قد وصل إلى درجة عالية من الاحتراف فى فن

التعامل مع الميكروفون، فيسجل المسمع فى شوط واحد دون "عكة" واحدة فى نطق أو ارتباك.

إلا أن إيقاع الإقبال عليه برغم ذلك بدأ يتباطأ، بل كاد يتوقف، تمر الأيام الطويلة دون أن يستدعيه أحد وفى لحظة تأمل فى ركنه المفضل عند الشرفة البحرية انتبه إلى ظاهرة غريبة، وهى أن المخرج الذى يستدعيه للتمثيل فى عمل، لا يستدعيه بعد ذلك مطلقاً، حتى المسرحيات العالمية التى كانت تسعى إليه بغزارة، والتى أبدع فى تمثيلها بوعى إذاعى يجعل المستمع يرى بأذنيه، لم تعد تأتى إليه، لم يعد أحد من المخرجين يطلبه إلا للضرورة القصوى، بدأ القلق يساوره، أخذ يسرح بالريجيسير الشخص المكلف بتوصيل أوامر الشغل إلى الممثلين، ويستدرجه فى الكلام عندما ذهب إليه يطلبه بعد انقطاع طويل ومريب، فعرف منه أنه لم يكن المرشح الأول لهذا الدور بل سبقه فى الترشيح خمسة من النجوم اعتذروا كلهم إما لانشغالهم وإما لسفرهم إلى المصيف، وأن المخرج ظل يؤجل الاستعانة به إلى أن حان موعد التسجيل، ولو كان أمامه ممثل يجيد اللغة العربية حتى وإن كان ضعيفاً فنياً لاستدعاه قبل أن يسلم أمره لله ويستدعى ضياء عبد البديع.

بعد انتهاء التسجيل تسلم إذن الصرف الفورى، وعرج على الخزنة الفرعية عندها تحكك به ممثل قصير القامة من غير المؤهلين علمياً ومع ذلك شغال كالولعة فى جميع البرامج، سحبه إلى جنب وهمس فى أذنه:

- "مطلوب من حضرتك جنيهان ونصف!"

- "لماذا؟!"

- "معاونة للمخرج المسكين!"

- "هل هو الذى كلفك بهذا؟!"

- "حاشا لله، الرجل لا يفكر فى هذا أبدا! إنما نحن المشتركين فى التمثيلية فكرنا فى هذه المساعدة! أصل.. لا تؤاخذنى! الرجل مرتبه لا يكفى سجائره! ويا بخت من نفع واستنفع! حين تأخذ مائة جنيه فى تمثيلية سهرة وتستغنى عن جنيهين ونصف يا بلاش.. أنا

آسف إذا كنت لم تسمع بهذا من قبل، مع إنك فى الشغل الإذاعى منذ أكثر من عامين! سأسألك: هل كرر أحد المخرجين طلبه لك بعد العمل الأول معه؟ لا بالطبع أنا أعرف! لأنى كثيرا ما أساعد المخرجين على توزيع الأدوار لأنى ملم بجميع أسماء الممثلين وأرقام تليفوناتهم وأستطيع أن أرشح بدلا من الممثل عشرة للدور الواحد! هى فى النهاية أرزاق، ولا أحد يعرف رزق من هذا الذى نعيش فيه!".

تفكر ضياء قليلاً، أوشك أن يزأر فيه غاضبا: إننى لا أقبل البرطلة على فنى! إننى أفيد المخرج أضعاف ما يفيدنى، إننى لو دفعت مليما واحدا على سبيل الرشوة لكى أشتغل فلن أحترم نفسى بعدها، ولن يكون للشغل أى طعم! سأشعر أننى أشتغل بالرشوة لا بالفن! لكنه خشى الفضيحة والاتهام بالمنظرة الكاذبة، فاعتقل غضبه ودفع الجنيهين والنصف على مضض، لكنه ما لبث حتى شعر بأنه منصوب عليه، فصعد إلى النادى ليشرب قهوة لعله يلاحظ ما قد يؤكد له زعم هذا الممثل الجامع للرشوة، كان كبرياؤه المهيض ينزف، أبعد كل هذه التأهيلات والموهبة والدعاية يقبل على نفسه دفع رشوة؟ شىء باق من كبريائه أوعز إليه بأن هذا الممثل كذاب استغفله كما يستغفل غيره ضامنا أن الحرج سيمنع الجميع من ذكر ما حدث، بدأ يتوجس بشدة، أليس من المحتمل أن يكون هذا فخا للإيقاع به فيه لكسر كبريائه الذى هو أميز شىء فيه، ما إن رأى الممثل إياه يعبر خلل الشرفة حتى ناداه. قال له بنبرة حسم: "هات المبلغ الذى أعطيته لك منذ قليل" نظر إليه الممثل القزم نظرة تحد فاجرة، قائلاً فى تطجين بلدى متقن.

- "مبلغ إيه يا أفندى؟ أنا ما أخدتش منك مبالغ!"

بهت ضياء، صاح برغمه:

- "تحلف؟"

شوح فى وجهه بخشونة:

- "أحلف على إيه؟ انت حترمى بلاك علينا؟!"

قال ضياء فى تهديد مهيض:

- "كده؟! طب حاعرفك شغلك!"

شوح له مرة أخرى باستهانة واستخفاف:

- "يا راجل روح!"

وأهمله عائداً إلى الشرفة، ومما أذهل ضياء أن الذين رأوا المشهد كانوا ينظرون إليهما من تحت لتحت باشمئزاز، نظرات فيها استعداد للتواطؤ مع أى أحد ضد أى أحد لله فى لله. عاد إلى بيته مقتنعاً بضرورة الحساب، وإلا فسوف ينهدم كيانه، وليس مظهره العام فحسب، هدهد أعصابه بكل الوسائل حتى استطاع كتابة شكوى موجزة لرئيس هيئة الإذاعة، موضوعها أنه قد تعرض للابتزاز من الممثل فلان الفلانى الذى أخذ منه رشوة قدرها كذا باسم المخرج فلان الفلانى عقب الانتهاء من تسجيل السهرة الفلانية فى استديو كذا الساعة كذا يوم كذا، أرجو التحقيق فى أمر هذه الظاهرة الخطيرة التى لا شك تسىء إلى سمعة جهاز خطير كالإذاعة له حساسيته الأمنية الخاصة، وتفضلوا بقبول فائق الاحترام، فى صباح اليوم التالى وضعها فى مظروف وسلمها لمدير مكتب مدير عام رئيس الهيئة، الذى اهتم بها وأدخلها أمامه بنفسه إلى مكتب سيادته لتكون تحت عينيه فور وصوله. أيام طويلة مضت وضياء عبد البديع ينتظر التحقيق فى شكواه، ولكن لا حياة لمن تنادى، فلما لم يطلبه أحد للتحقيق، بدأ هو يتمشى فى أروقة علوى والشريفين يتشمم الأخبار، عرف خط سير شكواه، رئيس هيئة الإذاعة أشر عليها وبعث بها على السركى اليومى إلى مدير عام البرامج، الذى أشر عليها بدوره وبعث بها إلى مراقب عام التمثيليات، الذى أشر عليها وبعث بها إلى كبير المخرجين، الذى طالب بعقد اجتماع لمخرجيه فى مكتب المراقب العام.. وإلى هنا عجزت تحريات ضياء عبد البديع عن الوصول إلى شىء مما دار فى هذا الاجتماع، لكن ما حدث له بعد ذلك أكد أنه كان اجتماعاً على درجة كبيرة من الخطورة.

أسابيع طويلة مشحونة بالضجر، تليفونه لا يكف عن الرنين، لا ليطلبه فى شغل، بل للدردشة المقيتة المقبضة باسم الزمالة

والصداقة يفتحون معه مواضيع غريبة يحار هو فى فهم مناسبة طرحها عليه الآن، اللهم إلا أن يكون الهدف من ورائها استدراجه ليعترف بعضمة لسانه بما حدث: هناك شائعات غامضة حوله تتردد فى أروقة الإذاعة، ما هى؟ لا يقولون، إنما يريدون دفعه إلى حكى ما لا يعرفون، ما يساعد تصوراتهم على تطوير الأمر إلى ذروة خيالية، أخيراً فهم بالويم أنه يكاد يكون متهماً بتقديم رشوة لأحد المخرجين وأن أجهزة الأمن اكتفت بزجره وتأنيبه منعا للشوشرة على مخرجى الإذاعة وسمعة المسئولين عنها!.. حاول الاتصال بأى مسئول إدارى أو أمنى لتصحيح حقيقة الأمر إلا أن أحدا لم يشأ الرد عليه، فكر فى اللجوء إلى الصحافة لتوضيح موقفه، فإذا به فى نفس اليوم يقرأ أن الصحفى الذى انتقد مذيعة التليفزيون الناعمة الشهيرة قد تم التحقيق معه ثم إيقافه عن الكتابة، فتراجع عن فكرته وسيطر عليه شعور طاغ بأنه صار وحيدا فى هذا الكون كفرع اجتثته الريح وطوحت به فى الفضاء اللانهائى.

درءاً لوقف الحال نزل يتجول فى أروقة الإذاعة لعله يجد منفذا إلى إصلاح ما قد يكون قد فسد من علاقة. فوجئ بجميع الوجوه تزوّر عنه، العيون تمنع نفسها عن رؤيته. ينقر على باب حجرة من حجرات المخرجين قائلاً صباح الخير: تتكفئ الرءوس على الأوراق دونما رد، حتى السعاة الذين طالما توددوا إليه ونعموا ببقشيشاته السخية وسجائره الأجنبية، بدوا كأنهم لم يعرفوه من قبل، يتصدرون بأجسادهم فى الأبواب لتعطيله عن الدخول وفى نظراتهم خسة الكلاب الضالة. فى نادى الإذاعة بالغ البعض فى الترحيب به بشكل كاريكاتيرى مؤلم. حينما أعطى الجرسون جنيها ليأخذ منه ثمن القهوة ويتردد كالعادة فى رد البقية اعتمادا على أنه سيقول له: خلى الباقى عشانك، لم يفعل الجرسون هكذا هذه المرة بل أخذ حقه بالمليم ووضع البقية أمامه على المنضدة وانصرف دون أن يبادله كلمة واحدة فى انكسار، أعاد ضياء فلوسه إلى جيبه مقاوما الرغبة فى البكاء، لكنه استحسن ما فعله الجرسون، فما

أحوجه الآن إلى هذه القروش، إنه على مشارف البهدلة، فمرتبه من المسرح القومى ينفد فى ثلاثة أيام، لم يعد بمقدوره ركوب التاكسى، ولا الانحشار فى الأتوبيسات، أصبح من المشّائين، أوشكت جلود أحذيته على التفكك من نعالها الحدائية، قمصانه فقدت أناقتها، بدله التى استعد بها للأفلام أهينت فى اللبس اليومى بدلاً من تلك التى اتسخت ولم تجد من ينظفها، فترهلت وتكرمشت، ثيابه الداخلية اسودت، المكوجى لا يعمل بالشكك، الغسالة التى كانت تجيئه كل أسبوع لم تجد حتى صابونة فكفت عن المجىء.

زعمت إدارة المسرح أن العرض المسرحى لهاملت قد تم تأجيله إلى أجل غير مسمى، وبعد أسابيع قليلة فوجئ بأفيشات الشوارع تعلن عن موعد العرض الوشيك لهاملت بطولة الوجه الجديد ماهر فاروق العائد من بعثة دراسية فى لندن.

تأجل تعيينه كمعيد فى معهد الفنون المسرحية. ذهب يسأل عن السبب، قيل له إنها أسباب أمنية غامضة شطبت اسمه من قائمة المعيدين، ومن البعثة الدراسية المقررة له، ومنحتها لزميله الأول مكرر، حاول بأنفاس متقطعة أن يعرف ما هى هذه الأسباب الأمنية، فاكتشف أنه سيزج بنفسه فى متاهات حالكة الظلمة، وجد أن الخوف من مصير غامض مجهول أخف وطأة بكثير جداً من محاولة استكشاف هذا المصير المحفوف بالظلمات والأشواك والرعب المقيم.

هيفاء الشوربجى حبيبة قلبه وزميلة دراسته، وشريكته فى الحلم الوردى الذى كان قد دخل بالفعل عتبات الواقع، رضيت بعد عدة مكالمات تليفونية أن تقابله فى كازينو قصر النيل، كلاهما كان يتلكأ عن عمد، معطياً للآخر فرصة الوصول قبله ليكون هو ضيفاً عليه، فتلاقيا وجها لوجه حول سور الكازينو، لم يكن فى جيبه مليما واحدا، وكانت لحيته قد طالت فأضفت على وجهه شيخوخة مبكرة، لكن هيفاء التى أدركت سوء حالته قالت: "أنا عازماك على شاى، لم يذق منه رشفة واحدة، نسيه، كان يريد أن يستشف موقف

هيفاء من مستقبلهما معاً فى ظل وضعه ذاك المتردى، فإذا هو فجأة غير متحمس حتى لمعرفة هيفاء نفسها، دمعت عيناه فنزلت خيوط الدمع بغزارة أغرقت لحيته، وهو مع ذلك يقاوم لكى يبتسم ليبدو عادياً، بعكس هيفاء التى كانت متماهية مع بكائها، كانت تبكى بوعى وإرادة، وكان بكاؤها موقفاً كامل البيان. فى النهاية لم يقل شيئاً، ولا هى قالت شيئاً، السأم وحده أجبرهما على القيام، أوصلته بالتاكسى إلى الشقة الصغيرة التى يسكنها فى حى العمرانية منذ التحاقه بالمعهد، ثم انصرفت، وكان هذا آخر لقاء بينهما.

لم يعد لاسمه وجود فى الصحف على الإطلاق، نسيت الجماهير صورته تماماً، فى محل البن البرازيلى كان يلمح بعض أساتذته من كبار المخرجين، فيعود ليسلم عليهم بعضهم تهرب من مسئوليته تجاهه بقوله: "لو لم تكن مشاغباً غداراً لتبسم لك الحظ"، وقال له آخر على سبيل اللوم والتأسى: "إيه بس اللى يخليك تدفع رشوة وبعدين تروح تبلغ ضيعت نفسك أونطة!" تحت ضغط الشعور بالقهر حاول البحث عن أى عمل يدر عليه دخلاً، فصدمته الحقيقة المرة: إن جميع المنافذ للرزق أو للشهرة أو حتى للتنفس كلها ملك الدولة، وهى كالأوانى المستطرقة تتوازن سوائل الأمور بنسب متساوية، فالمحنة التى تقع للواحد فى جهة تطارده فى جميع الجهات حتى تحكم عليه بالنفى المطلق من الحياة، بل وإنكار الوجود أحيانا.

باعتبارى من أقرب أصدقائه إليه ويهمنى أمره، كنت الوحيد الذى يعرف كل شىء عن محنته، قد تعذبت فى ملاحقته لتقديم ما أستطيعه من مساعدة. لكننى ما أكاد آراه حتى يختفى، ولقد طال اختفاؤه لدرجة أنه تم فصله من المسرح لطول الغياب، ذهبت أسأل عنه فى شقته التى شاركته فى إيجارها وسكناها ذات يوم بعيد، فعلمت أن إيجارها قد تراكم، وأن ضياء انقطع عن المجىء، فأقام صاحب الشقة دعوى قضائية وحصل على حكم بطرده ليتزوج ابنه فيها.

بعد أربعين عاماً كنت قد أحلت إلى المعاش من وظيفتى فى إدارة المسرح، وبلغت الخامسة والسبعين من العمر، لم يعد ثمة من هواية أو رياضة أشغل بها وقتى سوى الصيد بالسنارة، أوصلنى التجوال إلى ما تحت كوبرى الجامعة، بدأت ألاحظ وجود دائم لكهل طويل اللحية إلى منتصف صدره، يبدو جميل الوجه برغمها وبرغم ما يتسربل به من أسمال بالية فوق جسد يغطيه الصدأ والقشف، حافى القدمين، أحياناً يقرقش كسرة خبز يابسة، أحضرت له من بيتى وجبة دسمة، اقتربت منه، مسّيته بالخير ووضعتها أمامه، فأزاحها بذراعه ونظر لى بكبرياء وشموخ كأنه ملك متوج. انخطف قلبى فى الحال، عرفته، إنه صديق عمرى الفنان ضياء عبد البديع، بكيت، هتفت من فرحتى، حاولت احتضانه لكنه أبعدنى بذراعه فى توجس. قلت له: "ألا تذكرنى يا ضياء؟ أنا حسام نصير زميلك فى كلية التجارة وفى المسرح الحمد لله أنى شفتك أخيراً!" راح يصوب لى نظرات تخلو من أى معنى، فكررت مرات عديدة "أنا صديق عمرك حسام!" وكررت عليه ما ألهمنى به الله من نوادر وأمارات بيننا، ولكن دون جدوى، ابتلعت مرارتى ومشيت إلى حيث توضع سنارتى، فوجئت به ينادينى: "يا حضرة!" فعدت إليه ملهوفاً، فسألنى بجدية هائلة ورجاء حار: "من فضلك هى البلد دى اسمها إيه؟"، فحرت جوابا، حملت سنارتى ومشيت أبحث عن مكان آخر فى منطقة بعيدة، فيما يطاردنى صوته الجاد البرىء من أى ادعاء أو افتعال، فما إن عدت إلى بيتى واسترحت قليلاً حتى رمقتنى زوجى بنظرة استنكار، ثم سألتنى فى دهشة: بلد إيه دى اللى داير تسأل عن اسمها؟!

«إنه يتحرق شوقا لأن يمسكها بيديه متلبسة، لا ليقبض عليها وعشيقها ويبعث بهما إلى قسم شرطة البندر لكي تعرضهما على النيابة بتهمة الزنا، بل ليكسر عينها فحسب، فلعلها تستسلم له.»

الاشتياق لليلة حالكة

كان الاختراع مبهرا حقًا. التف حوله الرجال والنساء والأطفال في مندرتنا يتفرجون عليه وسط تعليقات من قبيل ويخلق ما لا تعلمون، ويصفق الرجال كفا على كف ويقول بعضهم لبعض ولسه ياما حنشوف!، ذلك أن جارنا التمورجى في أحد مستشفيات بندر دسوق عبد القادر مبروك الذى ينحدر من أصول سودانية بعيدة، ويعود إلى بلدتنا خميسا وجمعة من كل أسبوع، جاءنا ذات ليلة خميسية ومعه آلة توضع في الجيب وتسمى الكشاف، هو عبارة عن جسم اسطوانى من المعدن المطلى بالنيكل في حجم كوز الذرة، له طارة كالبرنيطة مغطاة بالزجاج يظهر من تحته لمبة كهربائية شفافة في حجم حبة الفول، إذا احترقت بكثرة الاستعمال يمكن فك هذه الطارة ذات القلاووظ وتغيير اللمبة وإعادة ربطها. في أسفله غطاء بقلاووظ أيضا، إذا برمناه يسارا ينفك لكى نضع في جوفه بطاريتين اسطوانيتى الشكل يسمى نوعها بالحجارة الطرش، توضعان وراء بعضهما ثم يغلق عليها الغطاء. على سطح نتوء متحرك إذا دفعه بإصبعه ينبعث الضوء عموديا كالقرطاس يمتد على مساحات بعيدة طولا وعرضا، فيبدد الظلام تماما على هذه المساحة بما يتيح لحامله أن يمشى على هديه آمنا مطمئن البال من غدر الظلام، فإذا أزاح النتوء إلى الوراء ينطفئ الضوء. والبطاريتان هما مصدر الطاقة الكهربائية التى تضيء اللمبة، وهى تنفد بعد حين، ويتعين على مستخدمه أن

بشترى بطاريتين جديدتين من محل فى بندر دسوق.

الزهو باقتناء المخترعات الحديثة كان قد استوطن دارنا ردحا طويلا من الزمان بوجود جهاز الحاكى - الجرامفون - فى دارنا موروثا عن جدى الذى كان ذات يوم يعد من كبار الملاك الأعيان، ووجود اللمبة البللورية التى تتدلى من السقف كالنجفة ويمكن سحبها إلى أسفل لتعميرها بالجاز وإشعال شريطها ثم دفعها إلى أعلى قرب السقف. فلما وقعنا فى أزمة من العوز والفاقة بعنا الحاكى باسطواناته للعمدة، فانتقل مركز الانبهار والإشعاع إلى داره ودواره، إلا أنه لم يهنأ بذلك طويلا، إذ فوجئت بلدتنا ذات يوم بالمعلم فرج الخياط المشهور فى البلاد المجاورة قد اشترى جهاز راديو ماركة فيليبس ببطارية كبيرة سائلة يتم شحنها كلما فرغت فى ماكينة الطحين. فتمركز الإشعاع كله فى دكان الأسطى فرج غطاس وأصبح دكانه مزدحما على الدوام ليل نهار، لا بالزبائن فحسب وهم كثار، بل بجميع شبان الناحية حيث قد سحرنا هذا الجهاز واعتبره أهلنا من علامات الساعة يعنى قيام القيامة بدليل أن الحديد قد نطق، فها هو ذا صندوق خشبى يرسل الغناء والتمثيل والأخبار يجىء بها من مصر ومن جميع أنحاء العالم.. وأخيرا ظهر هذا الكشاف العجيب فى يد التمورجى عبد القادر مبروك ليصبح محط أنظار الشباب، خاصة العياق منهم، وبالأخص أولئك الرجال الذين يحبون أن يكونوا هم وليس غيرهم أول من يقتنى مثل هذه المخترعات المبهرة للقوم.

ما لبث كشاف التمورجى عبد القادر مبروك حتى بات أشهر شىء فى بلدتنا، ينسب إليه كل ضوء يلمع فى السماء من الشهب المتساقطة إلى النجمة أم ذيل، فكثيرا ما كان عبد القادر مبروك فى عز الليل الخميسى على إحدى المصاطب مع شيخ الخفر أو بعض السهّيرة حيث يروح يسلط كشافه على السماء فى قرطاس ضوء عمودى يحلق فى السماء ويراه الناس فى شرق وغرب وشمال وجنوب البلدة حتى اختلطت عليهم الأضواء. ثم إن العمدة سرعان ما فطن إلى أن لمثل هذا الكشاف الكهربى ضرورة أمنية، يستطيع

هو أو شيخ خفرائه أن يسلط عموده الضوئى على حقول الذرة والقصب فيجوس الضوء خلل الأعواد يكشف فيه عن قطاع الطرق والمجرمين واللصوص، وكذلك فى حوارى البلدة المظلمة وخرائبها الكثيرة ومقابرها حيث يقبع الفسقة الفجرة، سيما وأن حوادث فش أقفال الدكاكين وسرقة المحاصيل وخطف البهائم كانت منتشرة فى البلدة، وبخاصة فى النصف الأخير من الشهور القمرية، حيث تغطس البلدة فى أعماق بئر سحيق من ظلام دامس لا يجرؤ على اختراقه إلا ذو قلب ميت. فلما فكر العمدة فى شراء كشاف مثله، وعلم أن ثمنه جنيه كامل يشتغل به عامل زراعى فى الحقول شهرا بأكمله، نزع الفكرة من رأسه ثم ما لبث حتى امتدح الظلام باعتباره لباس الستر الذى أراده الله سبحانه لعباده من بنى الإنسان الستر حلو برضه يا اخوانا! فى نفس الوقت كثيرا ما كان ينتظر قدوم عبد القادر عصر الخميس لقضاء إجازته الأسبوعية فى البلد، فيستلف منه الكشاف لمدة ساعة أو ساعتين نظير قرش أو قرش ونصف مساهمة فى ثمن البطارية، لكن عبد القادر كان يقول له خلى عنك يا عمدة! ولا يأخذ شيئا. وفى ليلة استدعاه بصنعة لطافة، بروح الإخوة والصداقة واضعا فى اعتباره أن عبد القادر مبروك وإن كان من مواطنيه فإنه تمورجى، يعنى يجيد القراءة والكتابة، يعنى أنه موظف حكومى محترم ولا يليق أن يعامله معاملة الفلاحين الجهلة والأجراء التافهين، ثم إن عبد القادر يستطيع الرد على العمدة وإفحامه إذا هذا تحداه، بل يستطيع مقابلة المسئولين فى البندر وتقديم ما يشاء من الشكوى، وسوف يستمعون إليه باحترام شديد، على الأقل لأنه تجىء من ورائه خدمات يحتاجونه فيها كضرب الحقن والتغيير على الجروح والإسعاف بأى شكل. استدعاه العمدة بصيغة عزومة على كوب من الشاى على مصطبة الدوار الداخلة فى حديقته الخلفية. بعد أن شربا ثلاثة أدوار من الشاى طلب العمدة من عبد القادر أن يعيره الكشاف لمدة خمس دقائق فقط، ماشى يا عمدة، لكنه وهو يسحبه من سيالته ويعطيه له ضحك ضحكة زنجية مصلصلة برقت منها

عيناه القويتان الناصعتان فى بشرته السوداء، ضحكة متقطعة يدارى بها حرجه ويحاول إكمال عبارة : بس وحياة والدك البطارية قربت تخلص! يعنى من غير مؤاخذة ما تفتحوش عمال على بطال!

صاح فيه العمدة باحتجاج اصطناعى لطيف :

ذلنا بقى! إياك فاكر إن ربنا حوجنا ليك! أنا على فكرة أقدر اشترى عشرة عشرين من كشافك ده بس خايف من الحرمانية!

ثم أعطاه ظهره ومضى ممسكا بالكشاف متوغلا فى حديقته المترامية الأطراف على مساحات بعيدة يلفها ظلام مركب شديد الكثافة حيث تبدو الأشجار العتيقة الكثيرة المتجاورة كتلال من ظلال تجمد كثلج المحيط المتجمد الذى نذاكره فى دروس الجغرافيا. تجلجل ضحكة عبد القادر مبروك وهو جالس وحده فوق المصطبة المختفية داخل السور من خلف الدوار. إنه يعرف أن العمدة ليس يريد أن يقتفى أثر لصوص أو مجرمين أرادوا به أو بحديقته شرا، لسبب بسيط هو أن جميع اللصوص والمجرمين من أصدقائه الخلص وبفضله لا يتم القبض عليهم مطلقا.. إنما العمدة قد جُن فى هذه السن الحرجة، فبرغم أن أحفاده تزوجوا وأنجبوا فإنه قل عقله ومال لمياصة البنت السنكوحة اللى اسمها سبيلة، المشهورة بالسلوك البطال، رأته سهلا فلعبت بدماغه فمال واندلق فتأبت عليه مع أنها رضيت لطوب الأرض، وهو من حرقته يريد أن يقتفى أثرها فى عز الليل، حيث أكدت الشائعات أن البنت تقابل عشاقها فى عز الليل تحت أشجار حديقته الكثيفة المخيفة، إنه يتحرق شوقا لأن يمسكها بيديه متلبسة، لا ليقبض عليها وعشيقها ويبعث بهما إلى قسم شرطة البندر لكى تعرضهما على النيابة بتهمة الزنا، بل ليكسر عينها فحسب، فلعلها تستسلم له، عندئذ تعاظمت ضحكات عبد القادر حتى كتمها فى صدره خشية إيقاظ النيام، فصار جسده يهتز وينتفض من فرط السخرية من جنون العمدة المغفل، وكانت رعشة الخوف تهجس فى صدره بتوقعات مخيفة.. آه لو علم العمدة أن هذه الشائعات صحيحة مائة فى المائة، آه لو علم العمدة أنه هو - عبد القادر مبروك - بطل هذه

الشائعات الأوحد! أنه هو الوحيد الذى نال من سبيلة ما لم ينله أحد، وأنه يحرص على المجىء كل خميس من أجلها، وأنه الليلة أنهى مهمته معها فى حديقة العمدة فى عشة مسقوفة يبيت فيها المعيز والخرفان أيام كان عند العمدة معيز وخرفان، وأن ذلك تم قبل مجيئه إلى العمدة بدقائق حتى إنه لم يجد وقتا ليستحم.

عصر اليوم التالى ـ الجمعة ـ كان عبد القادر يجلس مع أبى فى مندرتنا بدعوة من أبى الذى قال له إنه يريد أن يكلمه على رواقة فى موضوع مهم، مع أنهما سيلتقيان فجرا على السكة الزراعية فى طريقهما إلى محطة القطار على مبعدة ستة كيلومترات من بلدتنا، ليركب عبد القادر إلى دسوق، ويركب أبى إلى كفر الشيخ، وحينما راح عبد القادر يحكى لأبى حكايته مع العمدة والبنت سبيلة ـ دون أن يفطن إلى وجودى ـ راح أبى يضحك بعمق دون صوت وهو لا ينى يسلق عبد القادر بنظرات ذات معنى. وكنت أعرف السبب وراء هذه النظرات، فلقد رأيت ناسا كثيرين ينفردون بأبى فى المندرة ويشتكون له مر الشكوى من أفاعيل عبد القادر وكشافه، شىء يقشعر منه بدنى: إنه فى ليلتين من كل أسبوع يقضى النصف الأخير من الليل متجولا فى الظلام فى أماكن معينة لا تخطر على البال، فيسلط كشافه فجأة على عاشقين يختلسان وصلا فى أطلال قديمة أو بين الجناين وفى العشش المبنية فى الحقول القريبة، قد يعثر على بهائم مسروقة لتوها يتم التفاوض بشأنها بين السارقين، أو على لص بائس يتسلل جنب الحيطان.. عندئذ يدخل شريكا فى الصفقة، لابد أن ينوبه من الحب جانب مقابل كتمان الفضيحة، وهو لا يعتق من يقع تحت كشافه الفاضح، يضاجع فى الحال، يأخذ حقه من السرقة ناشفاً، أى نقوداً.. وفى كل شكوى كان أبى يعلق بأنه لا يستطيع أن يفاتحه فى مثل هذه الأفاعيل، لا بصراحة ولا بالموروب. إلا أننى كنت أعرف لماذا دعاه أبى هذه الليلة إلى الشاى فى المندرة: لقد اقتنع أبى أنه أحوج الناس فى بلدتنا إلى مثل هذا الكشاف، فأبى تاجر عطارة وأعشاب طبية، يفرش بها فى أسواق الناحية، يسافر خمسة أيام فى

الأسبوع، كل يوم فى سوق بلدة مجاورة، مما يحتم عليه الاستيقاظ قبل أذان الفجر بقليل، يذهب من فوره إلى المسجد يصلى الفجر جماعة، يعود فيجد أمى قد جهزت له خرج البضاعة والركوبة وكيساً به بعض أطعمة جافة، يركب متوكلا على الله هو محتاج للكشاف يضيء به الطريق إلى المسجد حتى لا يدوس فوق الكلاب النائمة فى الحوارى الضيقة الدامسة ولا يتعثر فى الحفر والدروب المليئة بالفخاخ، ثم إن الظلام كثيراً ما يبقى يضبب السماء والطرقات الزراعية بالشبورة، بل إن معظم هجمات قطاع الطرق على التجار المسافرين تتم فى مثل هذه اللحظات الساكنة الهاجعة، وهو - أبى - محتاج إلى الكشاف ليسلطه فى عينى من يداهمه فى الطريق إلى أن يستعد له بالمواجهة المسلحة، لكل هذا قال أبى لنفسه بصوت سمعناه ملعون أبو الجنيه اللى يندفع فى الكشاف ده! مائة قرش ليست خسارة فيه! وهكذا فتح حصالة خاصة جعل يدخر فيها كل يوم ما تيسر من الفكة حتى اكتمل الجنيه، وها هو ذا قد استدعى عبد القادر ليعطيه الجنيه ويكلفه بشراء كشاف له مثل كشافه بالضبط بنفس الحجم.

عبد القادر مبروك لا يستطيع التلاعب بأبى لأننا جيران الحيط فى الحيط، وهو طول عمره يخشى بأس أبى ويعمل له حساباً. فى مساء الخميس التالى طرق باب المندرة ودخل قدم لأبى الكشاف فى علبة من الورق المقوى. فى الحال حضرت العائلة برمتها، جاءوا يتفرجون، لم يتنازل أى فرد منهم عن حقه فى الإمساك بالكشاف وإضاءته وإطفائه حتى صرخ فيهم عبد القادر كفاية حتخلصوا البطارية فانتزعه أبى ودسه فى دولاب الحائط خلف ظهره.. حينذاك كانت أفاعيل عبد القادر قد فضحتها روائحها وبات الناس يتداولونها كحقائق مؤكدة، لكن أبى الذى سئم من الشائعات ومن الشكاوى كان قد أصيب بإحباط شديد من فرحة ما تمت. ففى فجر ذلك اليوم بكر أبى فى النزول شاهراً الكشاف فى يده، فإذا به يكتشف أن القمر ساطع فى السماء يغمر الأرض بنوره، كنا إذا فى بداية الشهر الهجرى فيا لها من مصادفة سخيفة كل ليلة ينزل أبى

بالكشاف فلا يجد ثمة من داع له على الإطلاق حتى داخل مراحيض المسجد يطولها القمر من فوق وتحت أبوابها القصيرة، من شدة غيظه كان أبى يصيح - وحده أو بين أصحابه فى المندرة - بحرقة حقيقية تفجر الضحكات فى الصدور يعنى القمر متشملل قوى الشهر ده طب يا أخى - يقصد القمر - حط فى عينك حصوة ملح وجاملنى بليلة سودة أفش فيها غليلى وأتمتع بنور الكشاف اللى دفعت فيه جنيه بحاله! ولقد جاءت الليلة السوداء بالفعل، أول ليلة غاب فيها القمر، كانت شكاوى الناس قد كثرت وقويت بانضمام العمدة وقيامه بإبلاغ النيابة - نيابة عن أهل بلدته - أن فى البلدة كشافاً يتجسس على خلق الله ليفضحهم ثم يبتزهم وكان عبد القادر قد سافر إلى بندر دسوق صباح ذلك السبت الذى كان ليلة بلا قمر، ليلتها نزل أبى ملهوفا قبل أن يتبدد الظلام، قفزت من الفراش وسرت فى أعقابه. الطريق إلى المسجد فركة كعب، لكن أبى أراد أن يستمتع بالظلام أطول مسافة ممكنة، آثر الذهاب إلى المسجد عبر طريق داير الناحية، كأنه يريد أن يأخذ حقه كله من ضوء الكشاف فى هذه الليلة، كان كأنه الطفل لا أنا. ثم إذا بالفرجة الكبرى تدهمنا على رأس الطريق الفاصل بين البلدة والغيطان: نصف دائرة من الأشباح سدت علينا الطريق، حاصرونا، قال الضابط: أهلا أهلا! جيت برجليك يا حلو! رايح تبتز مين الساعة دى يا ترى؟! قبضوا على أبى، وعدت إلى الدار أصرخ متخبطا فى الظلام.

لا أدرى كم من الشهور والسنوات أمضيناها فى نكد وشحططة فى المحاكم وأقسام الشرطة كم صرفنا من رشاو، ناهيك عن العطل ووقف الحال، لكننى أصبحت أنزعج بل أرتعد إذَا أضئ النور فجأة أو انطفأ لأى سبب من الأسباب.

❝ حينئذ تسمع الحارة كلها صوت ولولتها وصب لعناتها على كل مفتر جعلها تشترى ربع ما تحتاجه من أرغفة بالفلوس التى من المقرر أن تشترى بها كل الأرغفة، غير مقتنعة بأن الرغيف أبو ربع جنيه مميز عن الرغيف أبو شلن. ❞

أكل العيال

مع التكبيرة الأخيرة فى أذان الفجر تكون جارتنا أم هبة قد صحت من نومها الخفيف الخاطف، تعبر الصالة الضيقة المزدحمة بكنبة بلدى منجدة بشلتة ومسندين، وترابيزة من الصاج من النوع الذى يطوى وينفرد لكى يذاكر عليها عيالها السبعة، وماكينة خياطة عتيقة تسترزق من ورائها بترميم وإصلاح الملابس القديمة وتقييفها نظير قروش من زبائنها - جيرانها - سكان حارة الوطاويط فى منشية ناصر. نسمع صوتها وهى تسب العيشة واللى عايشنها، فنعرف أنها دخلت إلى حوض المياه متعشمة أن يكون سرسوب الحنفية المفتوحة من صلاة المغرب قد ملأ البستلة فإذا بها لا تجد نقطة ماء واحدة تتوضأ بها لصلاة الفجر، تماما مثلما حدث عندنا وعند كل الجيران. دقائق معدودة ونسمع صوت باب شقتها ينفتح ثم ينغلق. نتابع صوت خطواتها وهى تمشى تحت شبابيكنا، فنعرف أنها حملت البستلة على رأسها وهرولت بها إلى حنفية الصدقة قرب مزلقان منشية ناصر، وأنها تحمل بيديها جردلين كبيرين، لتعود بعد حوالى ثلث ساعة محملة بالماء المكرر، كالبهلوان تهبط على قرافيصها لتتمكن من عبور عتبة البيت ذات السقف الواطئ حتى لا تصطدم به البستلة. عند باب شقتها تهبط مرة أخرى واضعة أحد الجردلين على الأرض لتشد بيدها المفتاح من سيالتها، تفتح الباب.. عندئذ تكون ابنتها الكبرى هبة فى انتظارها فى فتحة الباب حيث تعاونها فى إنزال البستلة إلى

الأرض ثم تحملها وتدخل بها عفشة المياه، ومن ورائها أمها حاملة الجردلين. فى الحال تشمر ذراعيها وتقعد على أرض الكنيف، وهبة تغرف بالكوز من الجردل وتصب عليها حتى تتوضأ فى لمح البصر، تسحب السجادة المتآكلة الأطراف من فوق مسند الكنبة، تفردها على الأرض فى اتجاه القبلة، تقيم صلاة الصبح. على صوت قراءتها للفاتحة وقل هو الله أحد ـ حيث لا تحفظ من سور القرآن الكريم سواهما ـ يصحو زوجها الشقيان الأسطى محروس السواق.

ابنتها الكبرى هبة باسم الله ما شاء الله أصبحت عروسا ذات شخصية تصد عنها صياع منشية ناصر، هى الآن فى دبلوم التجارة، وهى ذراعها اليمنى، تصحو قبل إخوتها لتساعد أمها، تشعل البوتاجاز النقال تضع سخان الشاى، فإلى أن ينتهى أبوها من قضاء حاجته فى الكنيف مع كحة وسعال وبصاق بلغم كثيف من السيجارة التى أشعلها على الريق، تكون كوبة الشاى الخمسينة فى انتظاره على تلك الترابيزة التى تتخلخل وتهتز بمجرد لمسها ولهذا فقد دربوا جميعا على اعتقالها فى اللحظة المناسبة قبل أن يتدلدق ما عليها من سوائل. فى سرعة يلبس الأسطى محروس بنطلونه وقميصه، يجلس على الكنبة يشرب كوبة الشاى مع سيجارة ثانية ثم يتوكل على الله إلى بيت المعلم دياب صاحب التاكسى، يتسلم منه السيارة ويمضى إلى طريق الأوتوستراد أو إلى طريق القلعة داعيا الله أن يرزقه بإيجارها ومن فوقه رزق العيال السبعة الذين صممت أمهم على تعليمهم فى المدارس: هبة فى دبلوم تجارة، محمد فى الإعدادية، مها فى أولى إعدادى، سيد فى الابتدائية، وحسان فى القبول، ورشا وتوأمها خليل فى الرابعة من عمرهما.

بعد نزوله مباشرة تنزل أم هبة فى أعقابه حاملة مخلاة من الكتان فى قعرها حلة صغيرة، تجرى إلى الفرن البعيد فى أعماق الجبل، تقف فى الطابور لمدة تقرب من نصف ساعة، تشترى فى المتوسط خمسين رغيفا بواقع رغيفين لكل فرد من عائلتها فى ثلاث طقات يومية، لكن الفرن لا يقبل ولا جمهور الطابور يقبل أن

يعطيها كل هذا العدد من الأرغفة، يكفيها على الأكثر عشرين رغيفا، مما يضطرها إلى إخفائها فى المخلاة والتوجه إلى فرن آخر تأخذ منه ما تستطيع، ثم إلى بائع الفول والطعمية الواقف بعربته عند مزلقان منشية ناصر، تشترى بخمسة جنيهات ما يغطى قعر الحلة من الفول المدمس، وطعمية بجنيهين، وكيسا من الطرشى، حزمتين من البصل الأخضر ومثلهما من الجرجير والبقدونس، فإن فاضت فى يدها فلوس - وقلما تفيض - حودت على بائع الخضراوات تشترى قليلا من حبات الطماطم أو البطاطس.

حين تصل إلى البيت يكون العيال قد استيقظوا جميعا وقامت هبة بغسل وجوههم وإلباسهم ملابس المدرسة ورتبت لكل واحد حقيبة كتبه وكراريسه، ثم فرشت الكليم على الأرض ووضعت فوقه الطبلية فيتحلقون حولها فى انتظار أمهم التى ما إن تدخل حتى تتلقاها ابنتها هبة، تأخذ منها الأرغفة فتفردها على الطبلية، والحلة فتفرغها فى طبق عريض مفلطح وتدهك الفول بالزيت والكمون، تدلق الطرشى فى الطبسة، توزع أقراص الطعمية على كل واحد قرصين تتربع أم هبة بينهم، ينزلون على الرغفان والأطباق حتتك بتتك، فى ظرف خمس دقائق على الأكثر يكون الطبق قد مسح تماما كأنه غسل بمنظف كيميائى، ولم يبق من الأرغفة إلا فتافيت.. بحرص شديد تلمها أم هبة، تصرها فى هدمة قديمة فى بطانة من بقايا أوراق الخس والفجل لتبقى طرية إلى الغداء، فإن نشفت قليلا صعدت بها إلى الدجاج، فإن نشفت تماما ادخرتها لتفتها فى مرق من مخلفات الدجاج أو البط الذى تربيه لتبيعه لا لتأكله.

يذهب الجميع إلى مدارسهم، تبقى أم هبة وحدها مع رشا وخليل، تقوم إلى ماكينة الخياطة، تنهمك فى قص وترقيع ورفى وتركيب زراير وإصلاح عراو، إلى أن يفى زوجها الأسطى محروس بوعده، أن يمر عليها فى وسط النهار ليترك لها فلوساً تجهز بها غداء للعيال، حيث يكون الله قد بارك فى استفتاحه وتجمع فى حصالته من عمولته ما يستحق أن يفوت به على البيت ما يعطيه

لها تتصرف فى حدوده بشرط أن يكون كافيا للإشباع مهما كانت الحدود على الغداء. إنها شاطرة فى تلفيق الطبخات من اللاشىء، شوية خبيزة، طبق بصارة، شوربة عدس أصفر تفت فيه بقايا الخبز الناشف، فول نابت، بطاطس مقلية أو مسلوقة ومدهوكة بالملح، المهم إن العيال لابد أن يشبعوا، ولن يشبعوا إلا بالخبز وحده، أما مصاريف العيال فى المدارس فإنها متكفلة بنصفها على الأقل بفضل تربية الدجاج وماكينة الخياطة هذه التى اشترتها ـ بمكسبها من بيع البيض والدجاج ـ قديمة من سوق الجمعة فى الإمام الشافعى.

أزمة الخبز أرغمتها على النزول من بيتها مبكرا، ربما قبل أذان الفجر بقليل لعلها تكون أول واقف فى الطابور الذى يستطيل كل دقيقة فيتلولب ويتكور على نفسه توسيعا للطريق، والجميع فى حالة من التحفز الشرس ضد كل من يحاول سرقة دور غيره بأى لون من التلاعب، سرعان ما تلمع أنصال السكاكين والسنج والسيوف والنبابيت، الملل فى طول الوقوف كفيل وحده بخنق الصدور وتضييق الخلق، فما أسرع ما يقوم القتال بين الأقوياء من البلطجية المأجورين لحساب من يبيعون الخبز على الطرقات بأضعاف ثمنه. فى غمرة احتدام القتال وتدفق الدماء تتسلل أم هبة منسلخة من كتلة المرتاعين الذين التهوا عن كل شىء وراحوا يصوتون ويجاهدون للابتعاد عن مرمى السيوف ونغز المطاوى، تقف إلى بعيد تنتظر انفضاض المعركة الدامية من تلقاء نفسها أو بمجىء البوليس، ربما استطاعت انتهاز فرصة الغاغة وبعثرة الطابور فتتسلل لتحتل مكان من كان فى المقدمة، وربما وجدت أن الوقت سيطول حتى يستأنف البيع فتهرول إلى فرن آخر فى أعماق المقطم، أو تضطر إلى الشراء من الباعة السريحة على الطرقات إذا وجدت أن الوقت أزف ولابد من عودتها فورا إلى العيال.. حينئذ تسمع الحارة كلها صوت ولولتها وصب لعناتها على كل مفتر جعلها تشترى ربع ما تحتاجه من أرغفة بالفلوس التى من المقرر أن تشترى بها كل الأرغفة، غير مقتنعة بأن الرغيف أبو ربع جنيه مميز

عن الرغيف أبو شلن.

نسوان حارتنا يحسدون أم هبة على شطارتها، فى حين يحسد الرجال الأسطى محروس السواق على هذه المرأة الجدعة التى لولاها ما استطاع أن يعيش فى هذا البلد الذى انقلبت حكومته على شعبه فتركته يأكل نفسه بعيدا عن مخادعها الآمنة. لكن حسد النسوان فى حارة الوطاويط - لأم هبة بالذات - غير مؤذ، إذ إننا جميعا نعرف البير وغطاه، يحكمنا المثل الداير: لا تعايرنى ولا أعايرك الهم طايلنى وطايلك، وكذلك: على إيه تحسدنى وأحسدك دا اللى يسعدنى يسعدك. عين الحسود ينكسر سمها بمجرد رؤيتها للولية أم هبة وهى قادمة من السوق تتصبب عرقا ولأنها طوال السكة تنادى وهى ماشية على جاراتها لتنبههن إلى أخبار مهمة: يا بنت يا هنية قولى لأمك التموين نزل الدكان. يا أم دقدش طابور العيش راق شوية.. الحقى يا فكيهة حنفية الصدقة مفتوحة ومغرقة الأرض.

من غرائب حارتنا أن الواحدة من نسوانها بعد أن تغرز عينيها فى حمولة أم هبة مغمغمة من بين أسنانها آه منك يا أروبة يا أم قلب حامى!، تستدرك فى الحال بنبرة إعجاب والنبى جدعة! المعايش عايزة كده! كان الله فى عونك عندك زربة عيال!. إلا أن امرأة أخرى قد تردد نفس العبارة ثم تضيف إليها فى شىء كالعتاب أو الاحتجاج بس يعنى كان ضرورى يا أم هبة توديهم كلهم المدارس؟! ما تمديش رجليكى على قد لحافك ليه؟ ولا يعنى أقرع ونزهى؟!. غير أننا فى الحارة نعرف أن من تتقول مثل هذا الكلام تشعر بالغيرة من أم هبة خاصة أن الكثيرين من رجال حارتنا يعايرون زوجاتهم بأم هبة، وفى نفس الوقت يعلقون دائما بقولهم بس هو كمان جدع ويستاهلها!. ذلك أن الأسطى محروس السواق - وهو أقدم ساكن فى هذه الحارة أيام كانت منشية ناصر كلها مجرد عشش على أرض بوضع اليد - لم يكن مرحبا بخلفة العيال من الأساس، وساق على أم هبة طوب الأرض من الأهل والجيران لإقناعها بتركيب اللولب وتأجيل الخلفة حتى يعرف دخله من خرجه

إلا أنها قالت لهم حد يطول يرزقه ربنا بالعيال بس تيجى العيال ورزقها فى كعبها!. إنما الأسطى محروس طول عمره حكيم، إنه من أوائل من جاءوا إلى هذه المنطقة الجبلية الصحراوية ووضعوا يدهم على قطع أرض بنوا فوقها أعشاشا، فلما تكاثر الوافدون ولم يعد أحد يستطيع وضع يده على أرض جديدة ساومه أحد التجار على القطعة المقامة فوقها عشته: أن يبنى التاجر فوقها بيتا من طابقين ويعطى لمحروس شقة فى الدور الأرضى يتملكها وأن يكون له حق الانتفاع بالسطح لزوم تربية الفراخ والبط والأرانب ونشر الغسيل والقعاد فى الطراوة.

يا له من يوم لن تنساه حارتنا ولا منشية ناصر كلها: أم هبة وراءها عيال عندهم امتحانات، لابد أن يفطروا فطورا مشبعا قبل ذهابهم إلى المدرسة. نزلت من بيتها ومؤذن الفجر يهتف فى ميكروفون يزلزل رقود الموتى الصلاة خير من النوم. قالت وهى تهرول فى الحارة بصوت عال تعشمت أن يصل إلى السماء عدم المؤاخذة يا رب! العيش كمان خير من الصلاة، الصلاة ملحوق عليها لكن متأخذنيش يا رب الفرن مش ملحوق عليه. فى ذلك اليوم - كعادتى كل يوم - خرجت بعدها بقليل أشوف السبوبة: نصبة الشاى التى أقف بها جنب مدخل سوق منشية ناصر قرب المزلقان. هى ذهبت إلى الفرن، وأنا حودت على البقال أشترى المونة. حينما عدت إلى النصبة، وهى عبارة عن عربة يد أضع فى جوفها العدة وأغطيها بالمشمع وأحزمها بجنزير وقفل أشبكه فى تلك الحديدة الغائصة فى الأرض حيث كان غفير المزلقان - أيام كان القطار الحربى شغالا - يشبك فيها طرف الجنزير الذى يغلق به المزلقان حتى يمنع المرور إلى أن يفوت القطار، ما كدت أشعل وابور الجاز وأرص العدة حتى لمحت أم هبة قادمة تهرول من قلب السوق، تحمل على رأسها حلة الفول، وفى يمناها المخلاة متخمة بالأرغفة السخنة، وفى يسراها مخلاة أخرى من خيوط شبكية امتلأت بالطماطم والخضراوات. كانت ترتدى جلبابا صعيديا بنقشة محتشمة، وفى قدميها شبشب زنوبة يطرقع فى كعبيها، وجسدها

الملآن المبطرخ يرتج تحت الجلباب. صبحت على.. يسعد صباحك يا أم هبة نهارنا فل بإذن الله. من وراء السوق ظهرت دبابة كبيرة مسرعة، لا أعرف اسمها، إنما هى تشبه الدبابة، عجلاتها الحديدية محاطة بسير حديدى ذى أسنان حديدية قاطعة كأسنان المحاريث تخلف الأرض من ورائها صفين من الحفر كالجروح الغائرة، لعلها تابعة لإحدى شركات المقاولات، كانت تمشى على الأرض المترية غير المرصوفة الفاصلة بين طريق الأوتوستراد ومنشية ناصر، لعلها كانت ذاهبة إلى مكان ما فى الجبل الأحمر، ولحظة أن مالت نحو جسر السكة الحديد لتعبر المزلقان، كان هناك من هو أكثر عجلة من أم هبة الملهوفة على العودة إلى عيالها بأسرع وقت ممكن لتفطرهم قبل توجههم إلى لجان الامتحانات، هذا المتعجل داس على طرف شبشب أم هبة من الخلف دون أن يقصد طبعا، فانكفأت على بوزها منطرحة على الأرض فوق بطنها وقد غرق وجهها فى دم مخلوط بالفول المدمس، فى نفس البرهة مرت الدبابة فوق ذراعها اليسرى فبترته تماما ثم عبرت المزلقان كأن شيئا لم يكن. الجميع صوت ولطم خديه معتقدا بأن الولية لابد قد ماتت موتا محققاً، وها هو ذراعها المفتتة مع الحلة المنكفأة مع الأرغفة المبعثرة وحبات الطماطم والجرجير والطرشى كل ذلك على شطآن بحيرة من الدم. لكننا فوجئنا - أى وحق جلال الله - بأم هبة - ربما من حلاوة الروح - قد استجمعت جسدها وهبت واقفة دون أن تفطن إلى أنها فقدت ذراعها مرمية على مقربة منها كبلطية ميتة، راحت بذراعها اليمنى تجمع الأرغفة وهى تصيح فى فجيعة تلفظ أنفاسها الأخيرة أكل العيال يا خرابى يا مصيبتى السودة أكل العيال راح! ساعدونى يا خلق! أكل العيال طار! أكل الـ.. عيا.،، وسقطت على الأرض فى غيبوبة، وذراعها الباقية تحضن ما جمعته من أرغفة.

الفهرس

كتاب اليوم

ثقافة اليوم وكل يوم

يعتز "كتاب اليوم" بثقة قرائه الأعزاء فى أنحاء الوطن العربى، ومن أجل وصوله إليكم فى ميعاده المحدد فى أول كل شهر حسب قيمة الاشتراكات الموضحة فى الجدول التالى:

الاشتراك السنوى

داخل مصر	٧٢ جنيـــهـــا
الدول العربية	٣٣ دولاراً أمريكياً
اتحاد البريد الافريقى وأوروبا	٤١ دولاراً أمريكياً
أمريكا وكندا	٤٧ دولاراً أمريكياً
باقى دول العالم	٦٢ دولاراً أمريكياً

يتم السداد نقداً أو بشيك أو حوالة بريدية أهلية لأمر:

اشتراكات أخبار اليوم

٦ أ شارع الصحافة بالجلاء القاهرة
جمهورية مصر العربية

بطاقة فهرسه

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة
لدار الكتب والوثائق القومية إدارة الشئون الفنية

شلبى / خيرى

ما ليس يضمنه أحد: مجموعة قصصية /
خيرى شلبى

القاهرة: دار أخبار اليوم، ٢٠٠٩ .

ص، سم. ـ (كتاب اليوم)

تدمك ٢ ١٤٢٠ ٠٨ ٩٧٧

١ـ القصص العربية القصيرة

أ ـ العنوان

٨١٣,٠١

رقم الايداع ١٠٧٢٦ / ٢٠٠٩

I.S.B.N.977- 08 -1420 - 2

مطابع أخبار اليوم ٦ أكتوبر

كوبون اشتراك

الاســــــــم: ....

العنـــــــوان: ....

رقم التليفــون: ....

مدة الاشتراك: ....

السداد/ نقدا شيك مصرفى

برجـاء قـبـول اشـتـراكى فـى كـتـاب الـيـوم.. ومـرفق طيـه شـيك مصـرفى لأمـر اشـتراكات أخبار اليوم على ان يبـدأ الاشـتراك اعتبارا من / / ٢٠٠

الثمن 6 جنيهات

طبع بمطابع أخبار اليوم

6 222007 800078 21